الْفَصْلُ الْأَوَّلُ

ذِكْرُ الِاخْتِلَافِ فِي الْمَهْدِيِّ
وَأَشْهَرِ مَنِ ادَّعَى الْمَهْدِيَّةَ أَوِ ادُّعِيَتْ لَهُ

الْفَصْلُ الْأَوَّلُ

ذِكْرُ الِاخْتِلَافِ فِي الْمَهْدِيِّ، وَأَشْهَرِ مَنِ ادَّعَى الْمَهْدِيَّةَ، أَوِ ادُّعِيَتْ لَهُ

قال جمهور أهل السنة: «إنه من أهل بيت النبي ﷺ، من ولد الحسن بن علي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -، يخرج في آخر الزمان، وقد امتلأت الأرض ظلمًا وجورًا، فيملؤها قِسْطًا وعَدْلًا، وهذا هو القول الصحيح الذي تشهد له الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ، وأقره كبار المُحَدِّثِينَ، والحُفَّاظ، والمحققين في القديم، والحديث، إلا من لا يعتد بخلافه»، وقد سبق بيان ذلك بالتفصيل.

- وادَّعى بعضهم أنه **المسيح عيسى ابن مريم** - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - اعتمادًا على الحديث المنكر: «لَا مَهْدِيَّ إِلَّا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ»، وقد سبق رد هذا القول، وتضعيف الحديث[1].

- لقد راودت فكرة المهدية كثيرًا من الناس، حتى ادعاها بعضهم لنفسه؛ إما لوجود «بعض» العلامات فيه، أو لِتَكَلُّفِهِ الاتِّصَافَ بها.

- ومنهم فِرَقٌ ضالَّة حوَّرت فكرة المهدية، وتناولتها بالتعديل والتحريف؛ لينطبق وصفها على شخص معين تمحوروا حوله على أنه المهدي المنتظر.

- ومنهم من لم يَدَّعِ المهدية لنفسه إطلاقًا، ولكنه كان متحليًا بصفاتٍ طيبة جعلت مُحِبِّيه وأتباعه المبهورين به يَدَّعون أنه المهدي المنتظر.

- ومنهم من اجتمع فيه صفات طيبة، وإنجازات واقعية رائعة، في خدمة الدين، ولم يَدَّعِ المهدية لنفسه، ولا ادَّعاها له أحد، ولكن أُطْلِقَ عليه وصف «المهدي» بالمعنى العام

(١) انظر ص (١٤٩).

لا الخاص.

- ومن مُدَّعِي المهدية من طَبَعَ أَثَرًا عميقًا في أحداث التاريخ؛ حيث قامت له دعوة وكِيان، ومنهم من خمل ذِكْرُهم؛ فعاشوا وماتوا دون أضواء ولا ضوضاء.

وفي هذا الفصل نستعرض أشهر مُدَّعِي المهدية، أو مَن ادُّعِيَتْ لهم المهدية، وقد نبسط سيرة بعضهم؛ لما فيها من الدروس والعبر لكل من تراوده نفسه أن يدعي المهدية لنفسه، أو يَدَّعِيَهَا لغيره، والله - تَعَالَى - من وراء القصد.

(١) علي بن أبي طالب أمير المؤمنين رضي الله عنه (ت ٤٠ هـ).

ادعى عبدالله بن سبإ[١] اليهودي الزنديق الْمُتَمَسْلِمُ أن عَلِيًّا رضي الله عنه هو المهدي الْمُنْتَظَرُ، وأنه يرجع إلى الدنيا قبل يوم القيامة، فيملأ الأرض عدلًا كما مُلِئَتْ جَوْرًا.

ولما قُتِلَ علي رضي الله عنه زعم ابن سبإ أن المقتول لم يكن عليًّا، وإنما كان شيطانًا تصور للناس في صورة علي رضي الله عنه، وأن عليًّا صعد إلى السماء، كما صعد إليها عيسى ابن مريم - عليه السلام -[٢]، وزعم أنه الذي يجيء في السَّحاب، وأن الرعد صوته، والبرق تبسمه[٣].

وقد قيل لابن سبإ: إن عليًّا قد قُتِلَ، فقال: «إن جئتمونا بدماغه في صرة لم نصدق بموته، لا يموت حتى ينزل من السماء، ويملك الأرض بحذافيرها»[٤].

- يقول الدكتور عبدالعليم البستوي - حفظه الله -:

(لقد كان هدف عبدالله بن سبإ الأساسي هو إثارة الفتن والقلاقل بين المسلمين من

---

(١) أصله من اليمن، وكان يهوديًّا فأظهر الإسلام، وطاف بلاد المسلمين ليلفتهم عن طاعة الأئمة، ويُدخل بينهم الشر، قال فيه الذهبي: «من غلاة الزنادقة، ضالٌّ مُضِلٌّ»، وقد كان أبرز زعماء الفتنة الدامية التي انتهت بمقتل أمير البررة، وقتيل الفجرة؛ عثمان بن عفان رضي الله عنه، وادَّعى إلهية عليٍّ رضي الله عنه.

(٢) «الفرق بين الفرق» ص (٢٣٣).

(٣) «الملل والنحل» (١/١٧٤).

(٤) «التنبيه والرد» ص (١٨)، و«الفِصَل» (٤/١٨٠)، و«الملل والنحل» (١/١٧٤).

كل وجه ممكن، وإفساد عقائدهم بأي طريق، ولقد وجد في التظاهر بحب أهل البيت منفذًا كبيرًا، ومرتعًا خَصِبًا لتحقيق مآربه التخريبية.

فقد كان المسلمون جميعًا ينظرون إلى أهل بيت الرسول ﷺ نظرة حب وتقدير؛ لمنزلتهم من الرسول ﷺ، وكان من السهل جدًّا إثارة عواطف عامَّة المسلمين، بحجة الدفاع عن أهل البيت، والولاء لهم وتأييدهم.

وهكذا حدث؛ فقد استغل عبدالله بن سبإ هذه الناحية، وكذلك كل الذين شايعوه، ومشوا على فكرته في جميع العصور حسب مصالحهم، وأغراضهم، وأهوائهم السياسية، والمادية، ومن هنا نرى فرق الشيعة جميعًا على فكرة الرجعة لمن اختارته لها مهديًّا، إلا أن السر في تعدد أحزابهم هو ما كانت تُمْلِيهِ ظروفهم السياسية، وأهواؤهم المادية، وأغراضهم المختلفة، فكلما سولت لأحدهم نفسه أن يُغَامِرَ بطلب الوِلاية، والرياسة، أو المنافع الأخرى، اختار له مهديًّا، وتظاهر بالدعوة إلى إمامته، فإذا مات ذلك المهدي المزعوم قبل أن تتحقق مآربه، ادعى أنه غاب، ولم يمت، ولا بد أن يرجع قبل يوم القيامة، فيملأ الأرض عدلًا كما ملئت جَوْرًا، وظُلْمًا، ومن هنا كثر المهديون عندهم[1].

(٢) مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ[2] ـ رحمه الله ـ تَعَالَى (ت ٨١هـ).

قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ: (كان أول أمر المختار أن ابن الزبير أرسله إلى الكوفة؛ ليؤكد له أمر بيعته، فأظهر المختار أن ابن الزبير دعا في السر للطلب بدم الحسين، ثم أراد تأكيد أمره، فادَّعى أن محمد بن الحنفية هو المهدي الذي سيخرج في

---

(١) «المهدي المنتظر» ص (٦٣).

(٢) هو أبو القاسم محمد بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي، أحد الأبطال الأشداء في صدر الإسلام، وهو أخو الحسن والحسين ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ، غير أن أمهما فاطمة الزهراء ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ، وأمه خولة بنت جعفر الحنفية، ينسب إليها تمييزًا له عنهما، كان واسع العلم، ورعًا، قويًّا، شجاعًا.

آخر الزمان، وأنه أمره أن يدعو الناس إلى بيعته، وزَوَّرَ على لسانه كتابًا[١]، فدخل في طاعته جمعٌ جَمٌّ، فَتَقَوَّى بهم، وتتبع قَتَلَةَ الحسين، فقتلهم، فَقَوِيَ أمره بمن يحب أهل البيت)[٢].

وذكر الشهرستاني (أن المختار بن أبي عبيد[٣] قال بإمامة محمد بن الحنفية بعد علي، ولما وقف محمد بن الحنفية على ذلك تبرأ منه)[٤].

وقال عبدالقاهر البغدادي: (ثم رفع خبر المختار إلى ابن الحنفية، وخاف من جهته الفتنة في الدين، فأراد قدوم العراق ليصير إليه الذين اعتقدوا إمامته، وسمع المختار ذلك، فخاف من قدومه العراق ذهابَ رياسته وولايته، فقال لجنده: «إنا على بيعة المهدي، ولكن للمهدي علامة، وهو أن يضرب بالسيف ضربة، فإن لم يقطع السيف جلده فهو المهدي»، وانتهى قوله هذا إلى ابن الحنفية، فأقام بمكة خوفًا من أن يقتله المختار بالكوفة)[٥].

وقد اتفقت فِرَقُ الكَيْسانية[٦] كلُّها على إمامة ابن الحنفية في حياته، ولكن بعدما مات أقر قوم منهم بموته[٧]، وحوَّلوا الإمامة إلى غيره على خلاف كثير فيهم، وقال قوم آخرون: إنه حي، ولم يَمُتْ، وإنه في جبل رَضْوَى[٨]، وعنده عين من الماء، وعين من العسل، يأتيه رزقه غدوًّا، وعشيًّا، تُحَدِّثه الملائكة، وعن يمينه أسد، وعن يساره نمر،

---

(١) قال الحافظ ابن كثير: (وذلك عن غير أمر ابن الحنفية ورضاه، وإنما يتقولون عليه ليروجوا على الناس به، وليتوصلوا إلى أغراضهم الفاسدة). اهـ من: «البداية والنهاية» (٢٤٨/٨).

(٢) «الاحتجاج بالأثر» ص (١٢٣).

(٣) هو المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي، كان يدعي الكهانة، وكان شديد الكذب، ومن أقبحه: أنه ادعى أن جبريل ـ عليه السلام ـ يأتيه، وكان يقول بالبداء، وقد اتفق العلماء ـ كما قال النووي ـ على أنه الكذَّاب المراد بقول النبي ﷺ: «إن في ثقيف كذَّابًا ومُبيرًا» رواه مسلم، وأن المبير هو الحجَّاج بن يوسف، كما في «شرح النووي» (١٠٠/١٥).

(٤) «الملل والنحل» (١٤٨/١).

(٥) «الفرق بين الفرق» ص (٤٧).

(٦) نسبة إلى كَيْسان، لقب المختار بن أبي عبيد، وقيل: كيسان مولى علي رضي الله عنه.

(٧) مات ابن الحنفية سنة ٨١، وصلى عليه أبان بن عثمان بن عفان والي المدينة، ودُفِنَ بالبقيع.

(٨) جبل على مسيرة يوم من ينبع، وعلى سبع مراحل من المدينة ـ «معجم البلدان» (٥١/٣).

يحفظانه من أعدائه، إلى وقت خروجه، وأنه صاحب الزمان يخرج، ويقتل الدجّال، ويهدي الناس من الضلالة، ويُصْلِحُ الأرض بعد فسادها، ولم يَمُتْ، ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلًا، كما ملئت جَوْرًا[1].

قال الحِمْيَرِيُّ ـ، وكان ممن ينتظرون رجعة محمد بن الحنفية ـ:

يَا شِعْبَ رَضْوَى قَاطِنٌ بِكَ لَا يُرَى ... حَتَّى مَتَى تَخْفَى وَأَنْتَ قَرِيبُ

يَا بْنَ الْوَصِيِّ وَيَا سَمِيَّ مُحَمَّدٍ ... وَكَنِيَّهُ نَفْسِي عَلَيْكَ تَذُوبُ

لَوْ غَابَ عَنَّا عُمْرَ نُوحٍ أَيْقَنَتْ ... مِنَّا النُّفُوسُ بِأَنَّهُ سَيَئُوبُ[2]

وقال كُثَيِّرُ عَزَّة، وكان على مذهب الكيسانية:

أَلَا قُلْ لِلْوَصِيِّ فَدَتْكَ نَفْسِي ... أَطَلْتَ بِذَلِكَ الْجَبَلِ الْمُقَامَا

أَضَرَّ بِمَعْشَرٍ وَالَوْكَ مِنَّا ... وَسَمَّوْكَ الْخَلِيفَةَ وَالْإِمَامَا

وَعَادَوْا فِيكَ أَهْلَ الْأَرْضِ طُرًّا ... مَقَامُكَ عَنْهُمُ سِتِّينَ عَامَا

وَمَا ذَاقَ ابْنُ خَوْلَةَ طَعْمَ مَوْتٍ ... وَلَا وَارَتْ لَهُ أَرْضٌ عِظَامَا

لَقَدْ أَمْسَى بِمَجْرَى شِعْبِ رَضْوَى ... تُرَاجِعُهُ الْمَلَائِكَةُ الْكَلَامَا

وَإِنَّ لَهُ لَرِزْقًا كُلَّ يَوْمٍ ... وَأَشْرِبَةً يُعِلُّ بِهَا الطَّعَامَا[3]

وقال ـ أيضًا ـ:

أَلَا إِنَّ الْأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ ... وُلَاةَ الْحَقِّ أَرْبَعَةٌ سَوَاءُ

عَلِيٌّ وَالثَّلَاثَةُ مِنْ بَنِيهِ ... هُمُ الْأَسْبَاطُ لَيْسَ بِهِمْ خَفَاءُ

فَسِبْطٌ سِبْطُ إِيمَانٍ وَبِرٍّ ... وَسِبْطٌ غَيَّبَتْهُ كَرْبَلَاءُ

وَسِبْطٌ لَا يَذُوقُ الْمَوْتَ حَتَّى ... يَقُودَ الْخَيْلَ يَقْدُمُهَا اللِّوَاءُ

---

(١) انظر: «مقالات الإسلاميين» (١/٩٢)، «الملل والنحل» (١/١٥٠)، «التنبيه والرد» ص (١٩)، «الفرق بين الفرق» ص (٣٦).

(٢) «المهدية في الإسلام» ص (١٥٩).

(٣) «الفرق بين الفرق» ص (٤٢)، «الأغاني» (٩/١٤).

تَـغَـيَّـبَ لَا يُـرَى فِيهِـمْ زَمَـانًـا بِرَضْوَى عِنْدَهُ عَسَلٌ وَمَاءُ[1]

وقال الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية»:

(وقد ذهب طائفة من الرافضة إلى إمامته، وأنه يُنْتَظَرُ خروجه في آخر الزمان، كما يَنْتَظِرُ طائفة أخرى منهم الحسن بن محمد[2] العسكري، الذي يخرج - في زعمهم - من سرداب سامَرَّاء، وهذا من خرافاتهم، وهذيانهم، وجهلهم، وضلالهم، وتُرَّهَاتِهم)[3]. اهـ.

(٣) سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِالْمَلِكِ الخليفة الأُمَوي (ت ١٠٠هـ)

من خيار ملوك بني أمية، كان - رحمه الله - دَيِّنًا فصيحًا مُفوَّهًا عادلًا محبًّا للغزو.

عن ابن سيرين قال: «يرحم الله سليمان؛ افتتح خلافته بإحياء الصلاة، واختتمها باستخلافِهِ عُمَرَ»[4].

وقال الفرزدق في سليمان بن عبدالملك:

وَأَلْقَيْتَ مِنْ كَفَّيْكَ حَبْلَ جَمَاعَةٍ وَطَاعَةَ مَهْدِيٍّ شَدِيدِ النَّقَائِمِ[5]

وقال جرير فيه - أيضًا -:

سُـلَـيْـمَـانُ الْمُبَـارَكُ قَـدْ عَـلِـمْـتُـمْ هُوَ الْمَهْدِيُّ قَدْ وَضَحَ السَّبِيلُ[6]

وقال نَهار بن تَوْسِعة في سليمان بن عبدالملك:

لَـهُ رَايَـةٌ بِـالـثَّـغْـرِ سَـوْدَاءُ لَمْ تَـزَلْ تُفَضُّ بِهَا لِلْمُشْرِكِينَ جُمُوعُ
مُـبَـارَكَـةٌ تَـهْـدِي الْجُنُـودَ كَـأَنَّـهَـا عُقابٌ نحت من ريشها الوُقُوعُ

---

(١) «مقالات الإسلاميين» (٩٣/١)، «الفرق بين الفرق» ص(٤١).
(٢) كذا في الأصل، وصوابه: «محمد بن الحسن».
(٣) «البداية والنهاية» (٣٩/٩).
(٤) «سير أعلام النبلاء» (١١٢/٥).
(٥)، (٦) «المهدية في الإسلام» ص (٦٤).

عَلَى طَاعَةِ الْمَهْدِيِّ لَمْ يَبْقَ غَيْرُهَا فَأُبْنَا وَأَمْرُ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعُ[١]

وعن حكيم بن سعد قال: لما قام سليمان، فأظهر ما أظهر، قلت لأبي يحيى: «هذا المهدي الذي يُذكر؟» قال: «لا»[٢].

(٤) عُمَرُ بْنُ عَبْدِالْعَزِيزِ، خامس الخلفاء الراشدين المهديين، (ت١٠١هـ) - رحمه الله - تعالى -.

مجدد المئة الأولى، شاع عدله، وذاع فضله، حتى ظن البعض أنه المهدي الْمُبَشَّرُ به، قال وهب بن منبه: «إن كان في هذه الأمة مهدي، فهو عمر بن عبدالعزيز»[٣]، وعن عبدالجبار بن أبي معن قال: سمعت سعيد بن المسيب، وسأله رجل، فقال له: «يا أبا محمد، مَنِ الْمَهْدِيُّ؟»، فقال له سعيد: «أدخلت دار مَرْوان؟»، قال: «لا»، قال: «فادخل دار مروان تَرَ المهديَّ»، قال: فأذن عمر بن عبدالعزيز للناس، فانطلق الرجل حتى دخل دار مَرْوان، فرأى الأميرَ والناسَ مجتمعين، ثم رجع إلى سعيد بن المسيب، فقال: «يا أبا محمد، دخلتُ دار مروان، فلم أر أحدًا أقول: هذا المهدي»، فقال له سعيد بن المسيب، وأنا أسمع: «هل رأيت الأشجَّ عمر بن عبدالعزيز القاعد على السرير؟»، قال: نعم، قال: «فهو المهدي»[٤].

وعن العزرمي قال: سمعت محمد بن علي يقول: «النبي منا، والمهدي من بني عبد شمس، ولا نعلمه إلا عمر بن عبد العزيز»[٥].

وعن إبراهيم بن ميسرة قال: قلت لطاووس: «عمر بن عبدالعزيز المهدي؟»، قال:

---

(١) «ضحى الإسلام» (٣/٢٣٦)، وفي قوله: «عُقاب نحت من ريشها الوقوع» اضطراب!

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف».

(٣) «تاريخ الخلفاء» ص (٢١٦).

(٤)، (٥) «الطبقات الكبرى» (٥/٢٤٥)، و«تهذيب التهذيب» (١٠/٣٥٠)، وراجع حديث جابر ﷺ المتقدم ص (٤٤).

«كان مهديًّا، وليس بذاك المهدي»[١].

قال الإمام المحقق ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ: (لا ريب أنه كان راشدًا مهديًّا، ولكن ليس بالمهدي الذي يخرج في آخر الزمان)[٢]. اهـ.

(٥) مُوسَى بْنُ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِاللَّهِ (ت١٠٣هـ)

وهو ممن وصفه الناس بالمهدية، ولم يَدَّعِها لنفسه، كان إمامًا قدوة، من الأتقياء الصلحاء الفصحاء، قال الذهبي: «قيل: كان موسى يُسَمَّى المهديَّ»[٣]، وقال خالد بن شُمَيْر: «وكان في زمانه يرون أنه المهدي»[٤].

(٦) الْحَارِثُ بْنُ سُرَيْجٍ (ت ١٢٨هـ).

خرج على أمير خراسان (١١٦هـ) في زمن الخليفة هشام بن عبدالملك، وزعم أنه يدعو إلى الكتاب، والسنة، وأنه صاحب الرايات السود، واستولى على بعض البلاد من خراسان، ثم انهزم أمام الجيش الأموي، وهرب إلى بلاد الترك، حيث مكث اثنتي عشرة سنة، ولما كتب له يزيد بن الوليد بالأمان، رَجَعَ إلى بلاد المسلمين، ولما تولى الخلافة مَرْوان بن محمد خرج من جديد، وكان يؤيده في دعواه الجهم بن صفوان، ويقرأ على الناس سيرته في المساجد، والطرقات، إلى أن تصدى له نصر بن سَيَّار أمير خراسان، فقتل كثيرًا من أصحابه، ومنهم الجهم بن صفوان، ثم وقع قتال بين الحارث وحليفه جديع بن علي الأزدي الكرماني، فانهزم أصحاب الحارث، فقُتِلَ مع مئة من أصحابه في رجب ١٢٨هـ، وأمر الكرماني بصلب الحارث بلا رأس على باب مرو[٥].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف».

(٢) «المنار المنيف» ص (١٥٠).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٣٦٥/٤).

(٤) «السابق» (٣٦٦/٤).

(٥) انظر: «الكامل»، لابن الأثير، (١٧/٥ـ٢٠)؛ و«البداية والنهاية»، لابن كثير، (٢٦/١٠ـ٢٧).

(٧) مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِاللَّهِ بْنِ الْحَسَنِ «النفس الزكية» (ت ١٤٥هـ)

هو مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِاللَّهِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ الْهَاشِمِيُّ أَبُو عَبْدِاللَّهِ الْمَدَنِيُّ، اشْتُهِرَ بالعلم والزهد، حتى لُقِّبَ بـ«النفس الزكية»، وكان من سادات بني هاشم علمًا، وشجاعة، وكرمًا، كان صَوَّامًا قَوَّامًا من الصالحين، سَمَّاهُ أهل بيته بالمهدي، ولعله اقتنع بأنه الْمُبَشَّرُ به في الأحاديث خاصة، وأن اسمه محمد بن عبدالله، وأنه من ولد فاطمة ـ عليها السلام ـ، وهو يرى ظلم ملوك الدولة الأموية، وكان النفس الزكية قد بايعه جماعة من أهل الحجاز في أواخر دولة مَرْوَان الحمار بالخلافة، وكان من بينهم أبو جعفر المنصور، الذي أصبح فيما بعد الخليفة العباسي الثاني، بعد وفاة أبي العباس السفَّاح في أواخر سنة ١٣٦هـ.

فلما بُويِعَ المنصور بالخلافة اختفى محمد، ومعه أخوه إبراهيم؛ خوفًا من المنصور أن يَبْطِشَ بهما، وخاف المنصور أن يخرجا عليه يُطَالِبَانِهِ بالخلافة، ولما لم يتمكن المنصور من القبض عليهما قَبَضَ على أبيهما، وجماعة من أقاربهما، وحبسهم في سجن المدينة، ثم نقلهم إلى العراق، ومات كثير منهم في السجن.

فلما ضاق محمد ذرعًا بالاختفاء، تواعد هو وأخوه بالظهور في يوم واحد، فظهر محمد في المدينة، وهجم على أمير المدينة، وسجنه، ثم استولى على المدينة، كما استولى أخوه على البصرة في اليوم نفسه، وبايعه أهل المدينة، وتلقب بالمهدي [(١)]؛ وقد صرح بمهديته في بعض رسائله إلى المنصور.

قال ابن كثير: «تَلَقَّبَ بالمهدي؛ طمعًا أن يكون هو المذكور في الأحاديث، فلم يكن به، ولا تم له ما رجاه، ولا ما تَمَنَّاهُ، فإنا لله!» [(٢)].

وجرت بينه وبين المنصور مكاتبات كلٌّ منهما يعد فضائله، وحقه للخلافة،

---

(١) انظر: «مقاتل الطالبين» ص (٢٣٢)، وما بعدها.

(٢) «البداية والنهاية» (١٠/٨٤).

والإمارة، ولكن لم تَنْحَلَّ المشكلة بالمكاتبات، فجرت معاركُ طاحنةٌ كادت أن تغير مسار التاريخ، إلى أن وجَّه المنصور جيشًا قوامه عشرة آلاف جندي، بقيادة عيسى بن موسى العباسي، ودافع «النفس الزكية» وأصحابه بضراوة، ولكنهم لم يستطيعوا أن يصمدوا أمام الجيش العباسي، وكان المصير أن قُتِلَ محمدٌ النفسُ الزكية، وهو ينادي: «وَيْحَكُم! ابنُ نبيكم مجروحٌ مظلومٌ»، وكان ذلك في ١٤ رمضان سنة ١٤٥هـ[١].

لقد دخل في رُوع «النفس الزكية» أنه المهدي الموعود، «ولم ينتبه إلى السنن الكونية، وأن ظهور المهدي لا بد له من مقدمات يستطيع فيها أن يحكم المسلمين حكمًا إسلاميًّا صحيحًا، وأن المهـدي في آخـر الزمان عـند نزول عيسى ـ عليه السلام ـ»[٢] هـ.

وادَّعى بعض «الجارودية» أنه حي لم يُقْتَلْ، ولا مات، ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلًا كما مُلِئَتْ جَوْرًا[٣]، وزعم «المُحَمَّدِيَّةُ» أنه في جبل حاجر من ناحية نجد، إلى أن يُؤْمَرَ بالخروج فيخرج، ويملك الأرض، ويُبَايَع له بمكة بين الركن، والمقام[٤].

(٨) المهدي بن المنصور ثالث خلفاء بني العباس (ت ١٦٩هـ)

زعم بعضهم أنه المهدي المنتظر، وقد مضى زمانه، «واستدلوا بآثار موضوعة، وعلى تقدير صحتها لا تدل على أن المهدي العباسي هو المهدي الذي يخرج في آخر الزمان، بل هو مهدي من جملة المهديين الذي قال فيهم رسول الله ﷺ: (عليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي)، ومنهم في ذلك الوصف العام عمر بن

(١) «السابق» (١٠/٨٩).
(٢) «حركة النفس الزكية»، للأستاذ/ محمد سليمان العبدة ـ حفظه الله ـ ص (٦٩).
(٣) «الفصل» (٤/١٧٩).
(٤) «الفرق بين الفرق» ص (٥٨)، «مقالات الإسلاميين» (١/٩٩)، وانظر: «المهدي المنتظر» للبستوي، ص (٢١٣-٢١٥).

عبدالعزيز رضي الله عنه، بل هو أولى بهذه الصفة من المهدي العباسي»[١].

(٩) المهدي الخرافة مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الْعَسْكَرِيُّ (الإمام الغائب المزعوم):

يزعم الشيعة الإمامية الاثنا عشرية أن الإمامة تكون بالنص الإلهي، وأن النبي ﷺ نص على أن الإمامة تبدأ من ولاية علي بن أبي طالب رضي الله عنه وتنتهي بإمامة محمد بن الحسن «المهدي»، وهو إمامهم الثاني عشر الذي يزعمون أنه ولد من جارية، ثم غاب عن أنظار الناس.

لقد اخترع الشيعة هذه الخرافة ليخرجوا من المأزق الذي تورطوا فيه؛ حيث إنهم يعتقدون أن الإمام لا يموت حتى يُوصِيَ من يكون خَلَفًا له. يروي الكليني عن جعفر الصادق أنه قال: «لا يموت الإمام حتى يعلم من يكون بعده، فيوصي إليه»[٢]، وروى عنه - أيضًا - قوله: «لو بقيت الأرض بغير إمام لساخت»[٣].

كما أنهم زعموا أن الإمامة منحصرة في أولاد الحسين بن علي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -، ثم وقعت الورطة الكبرى حين تُوُفِّي الحسن العسكري، ولم ينجب أولادًا[٤]، وأصبح مذهبهم الضالُّ مهددًا في وجوده، ومِن ثَم ادَّعوا - تسويغًا لاستمرار الإمامة - أنه ولد له ولد، غير أنه اختفى في سرداب في بيت أبيه، ولكن لا يجوز البحث عنه، ولا السؤال عن مكانه، وقد اختلفوا اختلافًا شديدًا في وقت ميلاده، ومن هي أمه؟ وهل هو مستور غُيِّبَ دون أن يراه أحد؟ أو شُوهِدَ قبل الغيبة، أو بعدها؟ ومتى غاب[٥]؟

(١) انظر: «البداية والنهاية» (٦/٢٤٧-٢٤٨)، (١٠/١٥١ - ١٥٦)،و«المنار المنيف» ص (١٥٠).
(٢) «أصول الكافي»، للكليني، (٢٧٧).
(٣) «السابق» ص (١٧٩).
(٤) فقد جاء في «أصول الكافي»: «أن الإمام الحسن العسكري ولد في رمضان عام ٢٣٢هـ، وتُوُفِّيَ بعد أن عاش ثمانية وعشرين عامًا، بدون أن ينجب وَلَدًا، حسب رواية أخيه جعفر بن علي». اهـ، ص (٢٠٦).
(٥) انظر: «الملل والنحل» (١/١٧١-١٧٣)، و«فرق الشيعة»، للنوبختي، ص (٩٠-٩٢)؛ و«الفِصَل» (٥/٢١-٢٢).

لقد افترق الشيعة بعد وفاة الحسن العسكري إلى أربَعَ عشرةَ فرقة، لم تعترف بالمهدي المزعوم منها غيرُ ثلاث، وأنكرت الباقياتُ أن يكون له ولد أصلًا[1].

ويقول الشيخ محب الدين الخطيب ـ رحمه الله ـ مبينًا ارتباط اعتقادهم في المهدي الخرافة باعتقادهم في الرجعة:

(... ومن عقائدهم الأساسية أنه عندما يقوم المهدي ـ وهو إمامهم الثاني عشر ـ من نومته الطويلة، التي زادت على ألف ومئة سنة، سيُحيي الله له ولآبائه جميع حُكّام المسلمين السابقين، مع الحُكّام المعاصرين لقيامه، وعلى رأس الجميع الجبت والطاغوت (أبو بكر، وعمر) ـ في زعمهم قبحهم الله ـ فمَن بعدهما، فيحاكمهم على اغتصابهم الحكم منه، ومن آبائه الأحد عشر إمامًا؛ لأن الحكم في الإسلام حق لهم من الله، مُنْذُ تُوُفِّيَ رسول الله ﷺ إلى أن تقوم الساعة، ولا حق فيه لأحد غيرهم.

وبعد محاكمة هؤلاء الطواغيت المغتصبين يقتص منهم، فيأمر بقتل وإعدام كل خمس مئة معًا، حتى يستوفي قتل ثلاثة آلاف من رجال الحكم في جميع عصور الإسلام، ويكون ذلك في الدنيا قبل البعث النهائي في يوم القيامة، ثم بعد موت من يموت، وإعدام من يُعْدَمُ، يكون البعث الأكبر للحشر، ثم إلى الجنة، أو النار؛ الجنةُ لآل البيت، والذين يعتقدون فيهم هذه العقائدَ، والنار لكل من ليس بشيعي.

والشيعة يُسَمُّونَ هذا الإحياءَ، والمحاكمةَ، والقصاصَ باسم (الرجعة)، وهي من عقائدهم الأساسية التي لا يرتاب فيها شيعي واحد.

... ولأجل أن تعلم عقيدة الرجعة في كتبهم الْمُعْتَبَرَةِ أذكر لك ما قاله شيخ الشيعة أبو عبدالله محمد بن محمد بن النعمان المعروف عندهم باسم «الشيخ المفيد»، في كتابه «الإرشاد في تاريخ حُجَجِ الله على العباد» (ص٣٩٨-٤٠٢)، وهو مطبوع على الحجر في إيران طبعة قديمة، لم يُذْكَرْ تاريخها، ولكنها طُبِعَتْ على خط محمد علي

---

(١) «التشيع بين مفهوم الأئمة والمفهوم الفارسي»، لمحمد البنداري، ص (٢١٣).

محمد حسن الكلبابكاني.

روى الفضل بن شاذان عن محمد بن علي الكوفي، عن وهب بن حفص، عن أبي بصير، قال: قال أبو عبدالله ـ يعني جعفرًا الصادق ـ:

ينادي باسم القائم؛ (أي إمامهم الثاني عشر الذي يزعمون أنه وُلِدَ منذ أكثر من أحد عشر قرنًا، ولم يَمُتْ بعد؛ لأنه سيقوم، ويحكم، وينادي باسمه في ليلة ثلاث وعشرين، ويقوم في يوم عاشوراء)، لكأني به في اليوم العاشر من المحرم قائمًا بين الركن والمقام، جبرئيل عن يمينه ينادي البيعة له، فتسير إليه الشيعة من أطراف الأرض، تُطْوَى لهم طيًّا، حتى يُبَايِعُوهُ، وقد جاء الأثر بأنه يسير من مكة حتى يأتي الكوفة، فينزل على نجفنا، ثم يفرق الجنود منها في الأمصار.

وروى الحجال عن ثعلبة، عن أبي بكر الحضرمي، عن أبي جعفر ـ عليه السلام ـ أن محمدًا الباقر قال: «كأني بالقائم ـ عليه السلام ـ على نجف الكوفة، وسار إليها من مكة في خمسة آلاف من الملائكة، جبرئيل عن يمينه، وميكائيل عن شماله، والمؤمنون بين يديه، وهو يفرق الجنود في البلاد».

وروى عبدالكريم الجعفي قال: «قلت لأبي عبدالله ـ يعني جعفرًا الصادق ـ: «كم يملك القائم ـ عليه السلام ـ؟»، قال: «سبع سنين، تطول الأيام حتى تكون السنة من سنيه مقدار عشر سنين من سنيكم، فتكون سنو ملكه سبعين سنة من سنيكم هذه».

قال أبو بصير: «جُعِلْتُ فداك! فكيف يُطَوِّلُ الله السنين؟»، قال: «يأمر الله الفلك باللبوث، وقلة الحركة؛ فتطول الأيام لذلك، والسنون، وإذا آن قيامه مُطِرَ الناس جمادى الآخرة، وعشرة أيام من رجب، مَطَرًا لم يَرَ الخلائق مثله، فينبت الله لحوم المؤمنين، وأبدانهم في قبورهم، فكأني أنظر إليهم مقبلين ينفضون شعورهم من التراب».

وروى عبدالله بن المغيرة عن أبي عبدالله جعفر الصادق ـ عليه السلام ـ قال: «إذا

قام القائم من آل محمد أقام خمس مئة من قريش، فضرب أعناقهم، ثم أقام خمس مئة أخرى، فضرب أعناقهم ثم، خمس مئة أخرى، حتى يفعل ذلك ست مرات». قلت: «ويبلغ عدد هؤلاء هذا؟!» (وإنما استغرب ذلك لأن الخلفاء الراشدين، وبني أمية، وسائر حكام المسلمين إلى زمن جعفر الصادق ـ لا يبلغ عددهم عُشْرَ مِعْشَار هذا العدد)، فقال جعفر الصادق: «نعم، منهم، ومن مواليهم»، وفي رواية أخرى: «إن دولتنا آخر الدول، ولم يَبْقَ أهل بيت لهم دولة إلا ملكوا قبلنا؛ لئلا يقولوا إذا رأوا سيرتنا إذا ملكنا سرنا بمثل سيرة هؤلاء».

وروى جابر الجعفي عن أبي عبدالله قال: «إذا قام قائم آل محمد ضرب فساطيط يعلم فيها القرآن على ما أُنْزِلَ، فأصعب ما يكون على من حفظ اليوم؛ (أي على ما حفظه الناس من المصحف العثماني كما هو في زمن جعفر الصادق)؛ لأنه يخالف فيه التأليف.

وروى عبدالله بن عجلان عن أبي عبدالله ـ عليه السلام ـ قال: «إذا قام قائم آل محمد حكم الناس بحكم داود»[1].

وروى المفضل بن عمر عن أبي عبدالله قال: «يخرج مع القائم ـ عليه السلام ـ من ظهر الكوفة سبعة وعشرون رجلًا من قوم موسى، وسبعة من أهل الكهف، ويوشع بن نون، وسليمان، وأبو دجانة الأنصاري، والمقداد، ومالك بن الأشتر، فيكونون بين يديه أنصارًا، وحُكَّامًا».

وهذه النصوص منقولة بالحرف، وبكل أمانة، من كتاب عالم من أعظم علمائهم؛ وهو «الشيخ المفيد»، مروية بأسانيدهم المكذوبة ـ بلا شك ـ على آل البيت، الذين كان من أكبر مصائبهم أن يكون هؤلاء الكذَّابون خاصَّة شيعتهم، وكتاب «الشيخ المفيد»

(١) انظر: «لله .. ثم للتاريخ» لأحد علماء النجف التائبين، وهو السيد حسين الموسوي ص(١٠٥ ـ ١١٤)، حيث كشف الأصول اليهودية لدين الرافضة، بصفته شاهدًا من أهلها.

مطبوع في إيران، ونسخه الأثرية محفوظة، وموجودة عندنا.

ولأن عقيدة «الرجعة»، ومحاكمة حُكَّام المسلمين فيها ـ من عقائد الشيعة الأساسية، كان يؤمن بها عالمهم السيد المرتضى مؤلف كتاب «أمالي المرتضى»، وهو أخو الشريف الرضي الشاعر، وشريكه في تزوير الزيادات على «نهج البلاغة»[(١)]، ولعلها أكثر من ثُلُث الكتاب، وهي التي فيها تعريض بالصحابة، وتحامل عليهم، فقال السيد المرتضى المذكور في كتابه «المسائل الناصرية»: «إن أبا بكر وعمر يُصْلَبَانِ يومئذ على شجرة في زمن المهدي (أي إمامهم الثاني عشر الذي يسمون قائمَ آل محمد)، وتكون تلك الشجرة رطبة قبل الصلب، فتصير يابسة بعده»[(٢)].

ومن أكاذيبهم ـ أيضًا ـ أن المهدي المزعوم هذا سيُخْرِجُ مصحف فاطمة، وهو غير المصحف الموجود الآن، وقد نسب الكليني صاحب «الكافي» إلى جعفر الصادق أنه قال: «وإن عندنا لمصحفَ فاطمةَ ـ عليها السلام ـ، وما يدريهم ما مصحف فاطمة ـ عليها السلام ـ.... مصحفٌ فيه مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات، والله ما فيه من قرآنكم حرف واحد. مكثت فاطمة بعد النبي خمسًا وسبعين يومًا، صُبَّت عليها مَصَائِبُ من الحزن لا يعلمها إلا الله؛ فأرسل الله إليها جبرئيل يسليها، ويعزيها، ويُحَدِّثُهَا عن أبيها، وما يحدث لذريتها، وكان عليٌّ يستمع، ويكتب ما سمع. حتى جاء منه مصحف قدر القرآن ثلاث مرات، ليس فيه شيء من حلال، ومن حرام، ولكن فيه علم ما يكون»[(٣)].

لقد ثبت تاريخيًّا أن الحسن العسكري مات، ولم يعقب، وقد مات عقيمًا، ونص على ذلك ابن جرير، وابنُ قانع، وغيرهما من المؤرخين، قال الشيخ محب الدين

(١) انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٧/٥٨٩)، و«ميزان الاعتدال» (٣/٢٤٢)، و«كتب حذر منها العلماء» (٢/٢٥٠ ـ ٢٥٧)، وانظر نقد ابن كثير للشريف الرضي في «البداية والنهاية» (١٢/٥٣).

(٢) «الخطوط العريضة» ص (٥٩.٦٢)، باختصار، وانظر: «لله ثم للتاريخ» ص(٧٨).

(٣) «الكافي»، للكليني، (٣/١٩٩)، وانظر: «لله ثم للتاريخ» ص(٧٨ ـ ٨٢).

الخطيب - رحمه الله -: «إنه - أي محمد بن الحسن العسكري - شخصية موهومة نُسِبَتْ كَذِبًا للحسن العسكري الذي مات عن غير ولد، وصَفَّى أخوه جعفر تِرْكَتَهُ على أنه لا ولد له، وللعلويين سجل مواليد يقوم عليه نقيب في تلك الأزمان، لا يُولَدُ منهم مولود إلا سُجِّلَ فيه، ولم يُسَجَّلْ فيه للحسن العسكري وَلَدٌ، ولا يَعْرِفُ الْعَلَوِيُّونَ المعاصرون للحسن العسكري أنه مات عن ولدٍ ذكر»[1].

● **ويقول الدكتور عبدالعليم البَستوي معلقًا على خرافة مهدي السرداب:**

(ومن الأدلة الواضحة على كذب هذه الأسطورة المختلقة أن رواتها أنفسهم مضطربون أشدَّ الاضطراب في تفاصيلها، فَوَقَعَ بينهم اختلاف كبير في الوالد، والولد، والأم، والغيبة، وقد ذكره الشهرستاني في «الملل والنحل» بالتفصيل[2].

ومع هذا الاختلاف، والاضطراب، والتخليط في هذه الأُسطورة التي اختلقها بعض زعمائهم لأغراضهم الخاصة[3]، أصبح الكثير منهم يَشُكُّونَ فيها، حتى اضْطُرُّوا من جديد إلى اختراع أحاديثَ نسبوها إلى أئمتهم من أهل البيت، بأنه لا يخرج حتى يقع كثير من أتباعهم في شك من أمره، وأصبح البعض منهم يُوَقِّتُونَ لخروجه تسلية للأتباع السُّذَّجِ، وتبريرًا لعواطفهم، ولما وقع خلاف ذلك، وثبت كذبهم مرة أخرى، اضْطُرُّوا إلى اختراع أحاديثَ نسبوها إلى أئمة أهل البيت في كراهية التوقيت، وهكذا اخْتُرِعَتْ مجموعة خرافات وأكاذيب لحماية الأكذوبة الأولى، ولكن حتى الآن لم يقرَّ لهم قرار[4]...

● ولما رأى هؤلاء أن الأحاديثَ الثابتةَ الواردةَ في المهدي تقضي على أسطورتهم

---

(١) «الخطوط العريضة» ص (٨٣)، وانظر: «لله.. ثم للتاريخ» ص(١٠٥).

(٢) «الملل والنحل» (١/١٧١-١٧٣).

(٣) انظر: «الخطوط العريضة» ص (٨٤).

(٤) انظر: كتاب «الكافي» للكليني، باب نادر في حال الغيبة (٣٩٠/٤)، باب الغيبة (٣٩٤/٤)، باب التمحيص والامتحان (٤٤٦/٤)، باب، كراهية التوقيت (٤٤٣/٤)، وغيرها.

بالبطلان؛ فهي تنص على كون المهدي اسمُـهُ اسمُ النبي ﷺ، واسمُ أبيه اسمُ أبي النبي ﷺ، ووجدوا أنفسهم في موقف حَرِجٍ، بدءوا في اختلاقِ أكاذيبَ، وتأويلاتٍ مضحكةٍ:

١- اختلقوا أحاديثَ ليس لها زمام، ولا خطام، ونسبوها إلى الرسول ﷺ، وإلى علي، وغيره، وزعموا بها أنه ابن الحسن العسكري، حتى أنهم لم يتورعوا عن ذكر اسمه بالصراحة في هذه الأحاديث المخترعة.

٢- صاروا يؤولون أحاديث المهدي الصحيحة بتأويلات مضحكة، أو ينكرونها؛ فمنهم من ذهب إلى حذف هذه الكلمة من الرواية، وذكر «اسمه اسمي»[(١)] فقط، وأنكر زيادة «اسم أبيه اسم أبي»، وزعم أن اللازم طرحها، والإعراض عنها، إن لم يمكن تأويلها.

ومنهم من زعم أن هذه الرواية مُحَرَّفَةٌ، والصواب «اسم أبيه اسم ابني» بالنون؛ يعني الحسن[(٢)].

ومنهم من لجأ إلى تحريف معناها: فقالوا: إن المراد بأبيه هو جَده؛ وهو الحسين، وكنيته أبو عبدالله؛ فمعناه محمد بن أبي عبدالله، وجُعِلَتِ الكُنْيَةُ اسمًا؛ ومنهم ابن طلحة في كتابه «غاية السول في مناقب الرسول»، وكأنهم أحدقوا النظر في آبائه من الحسن العسكري إلى علي بن أبي طالب، فلم يجدوا أحدًا اسمه عبدالله في هذه الأجيال الطويلة كلها، ولو وجدوا لكان أهون). اهـ[(٣)].

- **قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى:**

«ومن له أدنى نظر يعرف أن هذا تحريف صريح، وكذب على رسول الله ﷺ فهل يفهم أحد من قوله: «يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسْمِي، وَاسْمُ أَبِيهِ اسْمَ أَبِي»، إلا أن اسم أبيه عبدالله، وهل يدل هذا اللفظ على أن جده كُنْيَتُهُ أبو عبدالله، ثم أي تمييز يحصل له بهذا؟ فكم من ولد الحسين من اسمه محمد، وكل هؤلاء يُقَالُ في أجداهم محمد بن

(١) «منهاج السنة» (٤/٢١١).
(٢) «الإشاعة» ص (٨٧).
(٣) «المهدي المنتظر» ص (٨١-٨٢)، بتصرف.

أبي عبدالله، كما قيل في هذا، وكيف يعدل من يريد البيان إلى من اسمه محمد بن الحسن فيقول: إن اسمه محمد بن عبدالله، ويعني بذلك أن جده أبو عبدالله، وهذا كان تعريفه بأنه محمد بن الحسن، أو ابن أبي الحسن؛ لأن جده عليًّا كنيته أبو الحسن ـ أحسن من هذا، وأبين لمن يريد الهدى، والبيان، وأيضًا فإن المهدي المنعوت من ولد الحسن بن علي لا من ولد الحسين، كما تقدم لفظ حديث علي»[١].

١٠ المهدي الملحد عُبَيْدُاللَّهِ بْنُ مَيْمُونٍ الْقَدَّاحُ (ت٣٢٢هـ)

كان جَدُّه يهوديًّا من بيتٍ مجوسي، فانتسب بالكذب والزور إلى أهل البيت، وادَّعى أنه المهدي الذي بَشَّر به النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، ومَلَكَ، وتَغَلَّبَ، واستفحل أمره، إلى أن استولت ذُرِّيَّتُهُ الملاحدةُ المنافقون، الذين كانوا أعظم النَّاس عداوة لله ولرسوله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ، على بلاد المغرب، ومصر، والحجاز، والشام، واشتدت غربة الإسلام، ومحنته، ومصيبته بهم، وكانوا يدَّعون الإلهية، ويدعون أن للشريعة باطنًا يُخَالِفُ ظاهرها؛ وهم ملوك القرامطة الباطنية أعداء الله، فتستروا بالرفض، والانتساب ـ كذبًا ـ إلى أهل البيت، ودانوا بدين أهل الإلحاد، وروَّجوه، ولم يَزَلْ أمرهم ظاهرًا، إلى أن أنقذ الله الأمة منهم، ونصر الإسلام بصلاح الدين يوسف بن أيوب ـ رحمه الله ـ، فاستنقذ الأمة الإسلامية منهم، وعادت مصر دارَ إسلامٍ بعد أن كانت دارَ نفاقٍ وإلحادٍ في زمنهم[٢].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «إن طوائفَ ادعى كلٌّ منهم أنه المهدي المُبَشَّرُ به؛ مثل مهدي القرامطة الباطنية الذي أقام دعوتهم بالمغرب، وهم من ولد ميمون القدَّاح، وادعوا أن ميمونًا هذا من ولد محمد بن إسماعيل[٣]، وإلى ذلك

(١) «منهاج السنة» (٤/٢١١).

(٢) انظر: «نقد المنقول» ص (٨٢).

(٣) (فقد ادَّعى أنه عُبَيْدالله بن الحسين بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، مع أن المعلوم لدى علماء الأنساب أن محمد بن إسماعيل مات، ولم يعقب). انظر: «الفرق بين الفرق» ص (٢٨٢-٢٨٣).

انتسبت الإسماعيلية، وهم ملاحدة في الباطن، خارجون عن جميع الملل، أكفر من الغالية؛ كالنصيرية، ومذهبهم مُرَكَّبٌ من مذهب المجوس، والصابئة، والفلاسفة، مع إظهار التشيع، وجَدُّهُمْ رجلٌ يهوديٌّ كان ربيبًا لرجل مجوسي، وقد كانت لهم دولة وأتباع، وقد صنَّف العلماء كُتُبًا في كشف أسرارهم، وهتك أستارهم؛ مثل: كتاب القاضي أبي بكر الباقلاني، والقاضي عبدالجبار الهمداني، وكتاب الغزالي، ونحوهم[(١)].

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ تَعَالَى ـ: (كانت مدة ملك الفاطميين مئتين وثمانين سنة، وكسرًا، فصاروا كأمس الذاهب ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾، وكان أول ملك منهم المهدي، وكان من سلميةَ[(٢)]، حدادًا اسمه عبيد، وكان يهوديًّا، فدخل بلاد المغرب، وتسمي بعُبَيْدِالله، وادَّعى أنه شريف عَلَوِيٌّ فاطمي، وقال عن نفسه إنه المهدي، كما ذكر ذلك غير واحد من العلماء والأئمة، بعد الأربع مئة[(٣)].

والمقصود أن هذا الدَّعِيَّ الكذَّابَ راج له ما افتراه في تلك البلاد، ووازره جماعة من الجَهَلَةِ، وصارت له دولة وصولة، ثم تمكن، إلى أن بنى مدينة سمَّاها «المهدية»[(٤)]؛ نسبةً إليه، وصار مِلِكًا مُطاعًا، يُظهر الرفضَ، وينطوي على الكفر المحض)[(٥)]. اهـ.

---

(١) «منهاج السنة» (٢١١/٤).

(٢) من قرى الشام.

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٢٧/٣٥)، (٥٠١/١٧)، (١٦٢/٤)، و«درء التعارض» (٦٠/١٠)، «سير أعلام النبلاء» (١٤١/١٥).

(٤) مدينة محدثة بساحل أفريقية، بينها وبين القيروان ستون ميلًا، والبحر محيط بها من جهاتها الثلاث، وقد أنشأها عبيد الله المهدي الفاطمي، حين اضطر العبيديون إلى الخروج من القيروان سنة ٣٠٨هـ، فرارًا من أجواء القيروان وأهلها الذين عادوا العبيديين وقاوموهم حتى تركوا شهود الجمعة معهم، وحتى لم يعد يحضرها من أهل القيروان أحد، وأفتى علماؤهم بعدم جواز دفع الزكاة لهم، بل جابهوهم بالسلاح، واعتبر العلماء قتيل الفاطميين خير قتيل، وكانت العامة تطلق على «المهدية»: «المردية» تفاؤلًا بهلاكها، انظر: «الأثر السياسي للعلماء في دولة المرابطين» ص(٢٦ ـ ٢٧).

(٥) «البداية والنهاية» (٣٦٩/١١).

● **وقال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ في أحداث سنة ٤٠٢هـ:**

«وكتب جماعة من العلماء، والقضاة، والأشراف، والعدول، والصالحين، والفقهاء، والمحدثين، وشهدوا جميعًا أن الفاطميين ملوكَ مصرَ (كُفَّارٌ فُسَّاقٌ فُجَّارٌ مُلْحِدُونَ، زَنَادِقَةٌ مُعَطِّلُونَ، وللإسلام جاحِدُونَ، ولمذهب المجوسية والثنوية مُعْتَقِدونَ، قد عطَّلوا الحدودَ، وأباحوا الفروجَ، وأحلُّوا الخمرَ، وسفكوا الدماءَ، وسَبُّوا الأنبياءَ، ولعنوا السلفَ، وادَّعَوُا الرُّبُوبِيَّةَ»[١] .

● **وقال ـ أيضًا ـ رحمه الله ـ تَعَالَى ـ:**

(وقد كان الفاطميون أغنى الخلفاء، وأكثرهم مالًا، وكانوا من أعتى الخلفاء، وأجبرهم، وأظلمهم، وأنجس الملوك سيرةً، وأخبثهم سريرةً، ظهرت في دولتهم البدع والمنكرات، وكَثُرَ أهل الفساد، وقلَّ عندهم الصالحون من العلماء، والعُبَّاد، وكثر بأرض الشام النصرانية، والدرزية، والحشيشية، وَتَغَلَّبَ الفِرِنْجُ على سواحل الشام بأكمله... وقتلوا من المسلمين خَلْقًا، وأممًا لا يحصيهم إلا الله، وسَبَوْا ذراريَ المسلمين من النساء والولدان، مما لا يحد، ولا يوصف، وأخذوا من أموال المسلمين ما لا يُحَدُّ، ولا يُوصَفُ...»[٢] . اهـ.

وقال القاضي الباقلاني عنهم: «هم قومٌ يُظْهِرُونَ الرفضَ، ويُبْطِنُونَ الكُفرَ المحضَ، والله ـ سبحانه ـ أعلم»[٣] .

ورُؤِي الفقيه المالكي عبدالله بن التبان يبكي بحرقة، فقيل له في ذلك، فقال: «خشية أن يشك الناس في كفر بني عبيد فيدخلوا النار»[٤]

---

(١) «السابق».

(٢) «السابق» (٢٨٦/١٢).

(٣) «السابق» (٣٦٩/١١).

(٤) «الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين» ص(٢٦).

● **وقال السيوطي في «تاريخ الخلفاء»:**

«ولم أُورِدْ أحَدًا من الخلفاء العبيديِّين؛ **لأن إمامتهم غير صحيحة؛ لأمور:**

● منها: أنهم غير قُرَشِيِّين، وإنما سَمَّتْهُمْ بالفاطميين جَهَلَةُ العوامِّ، وإلا فجَدُّهُمْ مجوسيٌّ، قال القاضي عبدالجبار البصري: اسم جد الفاطميين سعيدٌ، وكان أبوه يهوديًّا حدادًا نشَّابَةً...

وقال ابن خلكان: أكثر أهل العلم لا يُصَحِّحُونَ نسبَ المهدي عبيدالله جد خلفاء مصر، حتى إن العزيز بالله ابن المعز في أول وِلايته صعد المنبر يوم الجمعة، فوجد هناك ورقة فيها هذه الأبيات:

إِنَّـا سَـمِعْنَـا نَـسَـبًـا مُـنْـكَـرًا ... يُتْلَى عَلَى الْمِنْبَرِ فِي الْجَامِعِ

إِنْ كُـنْـتَ فِيمَـا تَـدَّعِـي صَـادِقًـا ... فَاذْكُرْ أَبًا بَعْدَ الْأَبِ السَّابِعِ

وَإِنْ تُـرِدْ تَحْـقِـيـقَ مَـا قُـلْـتَـهُ ... فَانْسِبْ لَنَا نَفْسَكَ كَالطَّائِعِ

أَوْ لَا، دَعِ الْأَنْـسَـابَ مَـسْـتُـورَةً ... وَادْخُلْ بِنَا فِي النَّسَبِ الْوَاسِعِ

وَإِنَّ أَنْـسَـابَ بَـنِـي هَـاشِـمٍ ... يَقْصُرُ عَنْهَا طَمَعُ الطَّامِعِ

وكتب العزيز إلى الأُمَوِيِّ صاحب الأندلس كتابًا سبَّه فيه، وهجاه، فكتب إليه الأُمَوِيُّ: «أما بعدُ، فإنك عرفتنا فهجوتنا، ولو عَرَفْنَاك لأجَبْنَاكَ»؛ يعني أنه دَعِيٌّ لا تُعْرَفُ قبيلته، وما أحسنَ ما قال حفيده المعزُّ صاحب القاهرة، وقد سأله ابن طَبَاطَبَا عن نسبهم، فجذب نصف سيفه في الغمد، وقال: «هذا نَسَبِي»، ونثر على الأمراء، والحاضرين الذهب، وقال: «هذا حَسَبِي».

● ومنها: أن أكثرهم زنادقة خارجون عن الإسلام، ومنهم من أظهر سبَّ الأنبياء، ومنهم من أباح الخمر، ومنهم من أمر بالسجود له، والخَيِّرُ منهم رافضي خبيث لئيم، يأمر بسب الصحابة ـ رَضِيَ اللَّهُ ـ تَعَالَى ـ عَنْهُمْ ـ، ومِثْلُ هؤلاء لا تنعقد لهم بيعة، ولا تصح لهم إمامة.

قال القاضي أبو بكر الباقلاني: «كان المهدي عبيدالله باطنيًّا خبيثًا، حريصًا على إزالة ملة الإسلام، أعدم العلماء والفقهاء؛ ليتمكن من إغواء الخلق، وجاء أولاده على أسلوبه: أباحوا الخمور والفجور، وأشاعوا الرفض».

وقال الذهبي: «كان القائم بن المهدي شرًّا من أبيه، زنديقًا ملعونًا، أظهر سب الأنبياء»، وقال: «وكان العبيديُّون شرًّا من التتار على ملة الإسلام»، وقال أبو الحسن القابسي: «إن الذين قتلهم عبيدالله وبنوه من العلماء والعُبَّاد - أربعة آلاف رجل؛ ليردُّوهم عن الترضي عن الصحابة، فاختاروا الموت».

قال القاضي عياض: «سُئِلَ أبو محمد القيرواني الكيزاني، من علماء المالكية، عَمَّنْ أَكْرَهَهُ بنو عبيد - يعني مصرَ - على الدخول في دعوتهم، أو يقتل.

قال: يختار القتل، ولا يُعْذَرُ أحدٌ في هذا الأمر...؛ لأن المقام في موضع يُطْلَبُ من أهله تعطيل الشرائع، وهو لا يجوز».

وقال ابن خلكان: «وقد كانوا يَدَّعُونَ علم الْمُغَيَّبَاتِ، وأخبارُهُمْ في ذلك مشهورة، حتى أن العزيز صَعِدَ يومًا المنبرَ، فرأى ورقةً فيها مكتوب:

إِنْ كُنْتَ أُعْطِيتَ عِلْمَ غَيْبٍ ... بَيِّنْ لَنَا كَاتِبَ الْبِطَاقَهْ
بِالظُّلْمِ وَالْجَوْرِ قَدْ رَضِينَا ... وَلَيْسَ بِالْكُفْرِ وَالْحَمَاقَهْ

وكتبت إليه امرأة قصة، فيها: «بالذي أعز اليهود بميشا، والنصارى بابن نسطور، وأذل المسلمين بك، إلا نظرت في أمري»، وكان ميشا اليهودي عاملًا بالشام، وابن نسطور النصراني بدمشق.

● ومنها أن مبايعتهم صدرت والإمام العباسي قائم موجود سابق البيعة؛ فلا تصح؛ إذ لا تصح البيعة لإمامين في وقت واحد، والصحيح الْمُتَقَدِّمُ». اهـ[1].

---

(١) «تاريخ الخلفاء» (٤-٦).

فصل

(١١) ابْنُ تُومَرْتَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِاللَّهِ الْبَرْبَرِيُّ الْهَرْغِيُّ[(١)]

في أواخر سنة ٥١٤هـ (١١٢٠م) وقعت بمدينة مَرَّاكُش أول بادرة مؤذنة ببداية الثورة الدينية التي اضطلع بها محمد بن تومرت ضد الدولة المرابطية.

ففي ذات يوم جمعة، من هذه السنة، دخل إلى المسجد الجامع رجل صغير القد، متواضع الهيئة، وجلس على مقربة من المحراب بإزاء الموضع المخصص لجلوس أمير المسلمين، فلما اعترض على ذلك بعض سدنة الجامع، تلا الآية ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن: ١٨]، ولما حضر أمير المسلمين علي بن يوسف، نهض سائر الحضور، إلَّا ذلك الرجل، فلما انتهت الصلاة بادر الرجل بالسلام على عليٍّ، وقال له فيما قال «غَيِّرِ المنكر في بلدك، فأنت المسئول عن رعيتك»، وبكى، فلم يجبه أمير المسلمين بشيء، ولما عاد إلى القصر سأل عنه، فقيل له: «إنه قريب العهد بالوصول، وهو يؤلف الناس، ويقول لهم: إن السنة قد ذهبت»، فأمر علي بن يوسف، وزيره عمر بن ينتان أن يكشف عن أمره ومقصده، فإن كانت له حاجة ينظر في قضائها، فقال الرجل: «ليس لي حاجة، وما قصدي إلا تغيير المنكرات».

كان هذا الرجل هو محمد بن تومرت، وكان قد آب من رحلته إلى المشرق؛ ونزل بمراكش، بعد أن طاف ببعض مدن المغرب الشمالية، وهو يدعو للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

(١) مصادر هذه الترجمة: «دولة الإسلام في الأندلس» ـ الجزء الرابع ـ لمحمد عبدالله عنان؛ «دولة الموحدين» للدكتور علي محمد الصلابي؛ «سير أعلام النبلاء» للحافظ الذهبي (١٩/٥٣٩ ـ ٥٥٢)؛ «الكامل»، لابن الأثير، (١٠/٥٦٩،٥٨٢)؛ «وفيات الأعيان»، لابن خلكان، (٥/٤٥-٥٥)؛ «تذكرة الحفَّاظ»، للذهبي، (٤/١٢٧٤)؛ «طبقات السبكي»، (٦/١٠٩-١١٧)؛ «البداية والنهاية»، لابن كثير، (١٢/١٨٦-١٨٧)؛ «شذرات الذهب»، لابن العماد، (٤/٧٠-٧٢)؛ «أطلس تاريخ الإسلام» ص (١٨١).

وأصل هذا الرجل من قبيلة هَرْغَة إحدى بطون مصمودة الكبرى، وقد اختلف في تاريخ مولده فيما بين ٤٧١، ٤٩١هـ، واسمه محمد بن عبدالله، ووالده من أهل السوس، وكان يقال لوالده «تومَرت» أي الضياء الذي يوقد في المسجد، وقيل: إنه لما وُلد فرحت به أمه وسُرَّت، فقالت بلسانها: «آتومرت آينو أيسك آيبوي»، ومعناه: يا فرحتي بك يا بني، وكانت إذا سئلت عن ابنها وهو صغير، تقول: «يك تومرت»، معناه: صار فرحًا مسرورًا، فغلب عليه اسم تومرت، وتُرِك دعاؤه باسمه الأول عبدالله[١].

● قال الحافظ الذهبي في التعريف به:

«الخارج بالمغرب، المدَّعي أنه عَلَوِيٌّ حَسَني، وأنه الإمام المهدي، وأنه معصوم، وهو بالإجماع مخصوم. رَحَلَ من السوس الأقصى شابًا إلى المشرق، فحج، وتَفَقَّهَ، وحصَّل أطرافًا من العلم، وكان لَهِجًا بعلم الكلام، خائضًا في مزالِّ الأقدام، أَلَّف عقيدةً لقَّبها بالمرشدة، وحمل عليها أتباعه، وسمَّاهم الموحِّدين، ونبز من خالف «المرشدة» بالتجسيم، وأباح دمه، نعوذ بالله من الغَيِّ والهوى!

وكان خَشِنَ العيشِ، فقيرًا، قانعًا باليسير، مقتصِرًا على زِيِّ الفَقْرِ، لا لَذَّةَ له في مأكَلٍ، ولا مَنْكَحٍ، ولا مال، ولا في شيءٍ غير رياسة الأمر، حتى لَقِيَ الله ـ تَعَالَى ـ.

لكنه دخل ـ وَاللَّهِ ـ في الدِّماء؛ لِنيل الرياسة المُرْدِيَةِ.

وله فصاحةٌ في العربية، والبربرية، وكان يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويُؤذَى، ويُضْرَب، ويصبر.

أُوذِيَ بمكة؛ فراح إلى مِصرَ، وبالغ في الإنكار، فطردُوه، وآذَوْهُ، وكان إذا خاف مِن البطشِ بهِ خلَّط وَتَبَالَه»[٢].

---

(١) «دولة الإسلام في الأندلس» (٤/١٥٨ ـ ١٥٩).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٩/٥٣٩-٥٤٢) بتصرف.

ثم سكن الثَّغر[١] مدَّةً، ثم ركِبَ البحر إلى المغربِ من الإسكندرية في أواخر سنة ٥١١هـ (١١١٧م)، ويقال إنه خرج منفيًا من الإسكندرية، لما ترتب من شغب على نشاطه في مطاردة المنكر، بيد أنه استمر في دعوته إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهو على ظهر السفينة التي أقلته، فألزم ركابها بإقامة الصلاة وقراءة القرآن، واشتد في ذلك حتى قيل إن ركاب السفينة ألقوه إلى البحر، فلبث أكثر من نصف يوم يسبح إلى جانبها دون أن يصيبه شيء، فلما رأوا ذلك أنزلوا إليه من رفعه من الماء، وقد عظم في نفوسهم، وبالغوا في إكرامه. ولما وصل إلى المهدية، نزل بمسجد من مساجدها، وليس معه سوى ركوة ماء وعصا، فتسامع به الناس، وأقبل الطلاب يقرأون عليه مختلف العلوم، وكان إذا شاهد منكرًا من آلات الملاهي، أو أواني الخمر، بادر إلى إزالته وكسرها، وأصابه بسبب ذلك بعض الأذى، ووصل خبره إلى الأمير يحيى ابن تميم بن المعز بن باديس ملك أفريقية، فاستدعاه مع جماعة من الفقهاء، فلما رأى سمته، واستمع إلى مناقشاته أعجب به وأكرمه وسأله الدعاء[٢] فقال: «أصلحك الله لِرعيتك!»، قال الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى:

(وسار إلى بَجاية، فبقي يُنكِرُ كعادته؛ فنُفِيَ، فذهب إلى قرية مَلَّالة، فوقع بها بعبدِالمؤمن[٣] الذي تسلطَن، وكان أَمْرَدَ عاقلًا، فقال: «يا شابُ، ما اسمُكَ؟» قال: عبدُالمؤمن، قال: «الله أكبرُ، أنت طَلِبتِي، فأين مقصِدُك؟»، قال: طلبُ العلم، قال: «قد وجدتَ العلمَ، والشَّرفَ، اصْحَبْني»، ونظر في حليته، فوافَقَتْ ما عنده مما ادعى أنه اطلع عليه من كتاب الجَفْرِ[٤]، فقال: «ممن أنت؟»، ....

(١) أي: الإسكندرية.

(٢) «دولة الإسلام في الأندلس» (١٦٤/٤ ـ ١٦٥).

(٣) عبدالمؤمن بن علي القيسي (ت٥٥٨هـ)، انظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء» (٣٦٦/٢٠)، «وفيات الأعيان» (٢٣٧/٣-٢٤١)، «البداية والنهاية» (٢٤٦/١٢-٢٤٧)، «شذرات الذهب» (١٨٣/٤)، «دولة الإسلام» (١٦٥/٤).

(٤) (الجَفر ـ بفتح الجيم وسكون الفاء ـ من أولاد المعز: ما بلغ أربعة أشهر، والمراد هنا جلد المعز الذي

قال: «مِن كُومية»[١] ، فربط الشاب، وشوَّقه إلى أمورِ عَشِقَها، وأفضى إليه بسرِّه،

= كُتِبَ فيه، وهذا الكتاب يَزْعُمُ الإمامية أن جعفرًا الصادق ـ رحمه الله ـ كتب لهم فيه كل ما يحتاجون إليه، وكل ما سيَقَعُ ويكون إلى يوم القيامة، وكان مكتوبًا عنده في جلد ماعز، فكتبه عنه هارون بن سعيد العجلي رأس الزيدية، وسماه الجَفْر باسم الجلد الذي كُتِبَ فيه، وهذا زَعْمٌ باطل؛ فإن جعفرًا الصادق كجده أمير المؤمنين لا يعلم الغيب، وقد ثبت عن جده أمير المؤمنين أن رسول الله ﷺ لم يخصه بشيء من دون أصحابه، كما في صحيح البخاري (١١١) و(١٨٧٠) و(٣١٧٢) و(٣١٧٩) و(٦٧٥٥) و(٦٩٠٣) و(٦٩١٥) و(٧٣٠٠)، من طريق أبي جُحَيْفَةَ السوائي، قال: سألت عليًّا ﵁ : هل عندكم شيء مما ليس في القرآن، أو ما ليس عند الناس؟ فقال: والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، ما عندنا إلا ما في القرآن؛ إلا فهمًا يُعطى رجل في كتابه، وما في هذه الصحيفة، قال: قلت: فما هذه الصحيفة؟ قال: «العقل؛ وفكاك الأسير، ولا يُقْتَلُ مسلم بكافر». قال الحافظ ابن حجر: وإنما سأله أبو جُحَيْفَةَ عن ذلك لأن جماعة من الشيعة كانوا يزعمون أن عند أهل البيت ـ لا سيما عليًّا ـ أشياء من الوحي خصهم النبي ﷺ بها لم يَطَّلِعْ غيرهم عليها.

ونقل العيني في «عمدته»: (١٦١/١) عن ابن بطال قوله: فيه ما يقطع بدعة الشيعة والمدَّعين على علي ﵁ أنه الوصي، وأنه المخصوص بعلم من عند رسول الله ﷺ ، لم يعرفه غيره؛ حيث قال: ما عنده إلا ما عند الناس من كتاب الله، ثم أحال على الفهم الذي الناس فيه على درجاتهم، ولم يخص نفسه بشيء غير ما هو ممكن في غيره.

على أن الكتاب لا تصح نسبته إلى جعفر الصادق ـ رحمه الله ـ، والذين نسبوه إليه من أجهل الناس بمعرفة المنقولات، والأحاديث، والآثار، والتمييز بين صحيحها وضعيفها، وعمدتهم في المنقولات التواريخ المنقطعة الإسناد، وكثير منها من وَضْعِ من عُرِفَ بالكذب والاختلاق؛ كأبي مخنف لوط، وهشام بن محمد بن السائب، وأمثالهما، وغير خافٍ على طلبة العلم أن ما لا يُعْلَمُ إلا من طريق النقل لا يمكن الحكم بثبوته إلا بالرواية الصحيحة السند، فإذا لم تُوجَدْ، فلا يسوغ لنا شرعًا وعقلًا أن نقول بثبوته. وانظر «أبجد العلوم» (٢/٢١٤-٢١٦)، و«لُقَطَةُ العجلان»، كلاهما لصديق حسن خان، ومجلة المنار ٤/٦٠، للسيد رشيد رضا). اهـ. من تعليق الشيخ شعيب الأرناؤط على «سير أعلام النبلاء» (١٩/ ٥٤٢-٥٤٣)، وانظر: «كتب حذر منها العلماء» (١/١٠٨-١٢٣).

وقد نقل ابن خلكان (٣/٢٤٠) عن ابن قتيبة قوله: «وأعجب من هذا التفسير تفسير الروافض للقرآن الكريم، وما يدَّعونه من علم باطنه بما وقع إليهم من الجفر الذي ذكره هارون بن سعيد العجلي، وكان رأس الزيدية، فقال:

أَلَمْ تَـرَ أَنَّ الـرَّافِـضِـينَ تَـفَـرَّقُـوا ... فَكُلُّهُمُ فِي جَعْفَرٍ قَالَ مُنْكَرَا

فَـطَـائِـفَـةٌ قَـالُـوا إِمَـامٌ وَمِـنْـهُـمُ ... طَوَائِفُ سَمَّتْهُ النَّبِيَّ الْمُطَهَّرَا

وَمِنْ عَجَبٍ لَمْ أَقْضِهِ جِلْدُ جَفْرِهِم ... بَرِئْتُ إِلَى الرَّحْمَنِ مِمَّنْ تَجَفَّرَا

(١) بضم الكاف وسكون الواو: قبيلة صغيرة كانت تنزل بساحل البحر من أعمال تلمسان.

وكان في صُحبته الفقيهُ عبدُالله الوَنْشَرِيسِي، وكان جميلًا نَحْوِيًّا، فاتفقا على أن يُخفيَ علمَهُ، وفصاحَتَهُ، ويتظاهرَ بالجهل واللَّكَنِ مدةً، ثم يجعلَ إظهار نفسِهِ معجزةً، ففعل ذلك، ثم عَمَدَ إلى ستة من أجلاد أتباعِهِ، وسار بهم إلى مَرَّاكُشَ[١]، وهي لابنِ تاشفين، فأخذوا في الإنكار[٢]، فخوَّفوا الملك منهم، وكانوا بمسجد خرابٍ، فأحضرهم الملكُ فكلموه فيما وقع فيه مِن سَبِّ الملك، فقال: «ما نُقِلَ من الوقيعة فيه فقد قلْته، ولي مِن ورائه أقوال، وأنتم تُطرونه، وهو مغرورٌ بكم، فيا قاضي، هل بلغك أنَّ الخمرَ تُبَاعُ جهارًا، وتمشي الخنازيرُ في الأسواق، وتُؤخَذُ أموالُ اليتامى؟»، فَذَرَفَتْ عينا الملكِ، وأطرق، وفَهِمَ الدُّهاةُ طَمَعَ ابنِ تُومرت في المُلْك، فنصح مالك بن وهيب ـ وكان عالمًا صالحًا ـ سلطانه، وقال: «إني خائفٌ عليك من هذا، فاسجنْه، وأصحابَه، وأنفق عليهم مؤنتهم، وإلا أنفقتَ عليهم خزائنَك»[٣]، فوافقه، فقال الوزيرُ: «يَقْبُحُ بالمَلِكِ أن يبكي مِن وَعْظِهِ، ثم يُسيء إليه في مجلسٍ، وأن يَظْهَرَ خوفُك ـ وأنت سلطان ـ مِن رجلٍ فقيرٍ»، فأخذته نخوةٌ، وصرفه، وسأله الدُّعاء)[٤]. اهـ.

«لقد تنبه الفقيه مالك بن وهيب الأندلسي إلى أن ابن تومرت ليس طالب آخرة،

(١) لما طُرد ابن تومرت من فاس، توجه إلى مَرَّاكُش مقر حكم المرابطين، وخلال رحلته إليها كان يُنَبِّهُ عبدالمؤمن بن علي للمواقع ذات الأهمية الاستراتيجية، ويدل ذلك على أنه عاد إلى بلاده وهو يحمل معه برنامجًا للدعوة إلى الخروج على المرابطين، وخطة لحرب طويلة الأمد ضدهم، انظر: «دولة الموحدين» ص(٢٦)، و«السلفية وأعلامها في موريتانيا» ص(٢٠٢).

(٢) انظر واقعة إنكاره على أخت أمير المسلمين في «دولة الإسلام» (١٦٩/٤).

(٣) وعند ابن خَلِّكان: (ففهم الحاضرون من فحوى كلامه أنه طامع في المملكة لنفسه، ولما رأوا سكوت الملك وانخداعه لكلامه لم يتكلم أحد منهم، فقال مالك بن وهيب، وكان كثير الاجتراء على الملك: «أيها الملك، إن عندي لنصيحة إن قبلتها حمدت عاقبتها، وإن تركتها لم تأمن غائلتها: إن هذا والله لا يريد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إنما يريد إثارة الفتنة، والغلبة على بعض النواحي، فاقتله، وقلدني دمه»، وفي بعض الروايات: فقال الملك: «ما هي؟»، قال: «إني خائف عليك من هذا الرجل، وأرى أنك تعتقله وأصحابه، وتنفق عليهم كل يوم دينارًا لتكتفي شره، وإن لم تفعل ذلك لتنفقن عليه خزائنك كلها، ثم لا ينفعك ذلك)اهـ. «وفيات الأعيان» (٥٠/٥)، و«الكامل» (٥٧١/١٠).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (٥٤٤-٥٤٢/١٩) بتصرف.

وإنما هو طالب سلطان، وأشار على الأمير علي بن يوسف بقتله؛ ليكتفي شره؛ لأنه إذا وقع في بلاد المصامدة أَلَّبَهُمْ على المرابطين، ولكن وزير علي بن يوسف ينتان بن عمر، وسير بن ورييل، أقنعا أمير المسلمين علي بن يوسف بعدم الأخذ برأي مالك بن وهيب.

وألحَّ مالك بن وهيب على أمير المسلمين[1] بتخليده في السجن إذا لم يَقْتُلْهُ، وقال له: «اجْعَلْ عليه كبلًا؛ كي لا تسمع له طبلًا»، فوافقه على ذلك، وحال ينتان مرة ثانية دون الأخذ برأي مالك بن وهيب، والذي خاطب أمير المسلمين قائلًا: «يا أمير المسلمين، هذا وَهَنٌ في حق الملك أن تلتفت لهذا الرجل الضعيف؛ فخلِّ سبيله؛ إنه رجل لا يملك سد جوعه». لقد أصابت كلمات الوزير ينتان عزة نفس أمير المسلمين، فاستصغر شأنه، وأمر بإطلاق سراحه، على شرط أن يخرج من بلاد أمير المسلمين[2].

لقد صدقت فِراسة مالك بن وهيب في ابن تومرت، وندم ابن تاشفين، بعد فوات الأوان؛ لأنه لم يأخذ برأيه[3]. لقد كان ابن تومرت مُولَعًا بالأمر بالمعروف، والنهي عن

---

(١) لما كثرت فتوح «الأمير» يوسف بن تاشفين رحمه الله، وترامت أطراف مملكته، قالوا له: «إن حقك يسمو على لقب الإمارة»، واقترحوا عليه أن يتسمى «بأمير المؤمنين» ولكنه أبى، واعتذر بأن هذا اللقب إنما يتسمى به خلفاء بني العباس، سلالة النبي ﷺ، وأصحاب الحرمين، وأنه يُعتبر في المغرب رَجُلَهم والقائم بدعوتهم، ولذا قَبِلَ أن يسمى «أمير المسلمين».
لقد كان المرابطون يعتقدون وجوب بيعة الخليفة العباسي، فاعترفوا بالخلافة العباسية، ونقشوا اسم الخليفة العباسي على نقودهم، وعقب انتصار ابن تاشفين في الأندلس أوفد إلى الخليفة العباسي الإمام عبدالله بن العربي يبشره بانتصاراته في الأندلس، ويطلب تقليده بولاية البلاد التي بسط نفوذه عليها، وعادت البعثة إلى المغرب بتقليد الخليفة وعهده للأمير يوسف بن تاشفين.
وهذه من محاسن المرابطين جزاهم الله خيرًا، التي تجسد حرصهم على لزوم جماعة المسلمين، رغم تمكنهم من الاستقلال بالدولة بدون أي ضرر، وبذلك كانوا سندًا معنويًّا قويًّا للخلافة العباسية السنية، انظر: «فقه التمكين عند دولة المرابطين» ص(١٨٢ - ١٩١)، «دولة الإسلام في الأندلس» (٤/٣٨ - ٤١).

(٢) «دولة الموحدين» ص (٢٨-٢٩).

(٣) وعند ابن خلكان: (... فَنَدِمَ - أي الملك - على فوات محمد من يده، وعَلِمَ أن الحزم كان مع مالك ابن وهيب فيما أشار به). اهـ. من «الوفيات» (٥/٥٢).

المنكر، وكان ينطوي قلبه - والله - تَعَالَى - أعلم - على أغراض أخر يشي بها قوله لبعض أصحابه قبل خروجه بالمغرب:

دَعْنِي فَفِي النَّفْسِ أَشْيَاءٌ مُخَبَّأَةٌ ... لَأَلْبِسَنَّ لَهَا دِرْعًا وَجِلْبَابَا
كَيْمَا أُطَهِّرَ دِينَ اللَّهِ مِنْ دَنَسٍ ... وَأُوجِبَ الْفَضْلَ لِلسَّادَاتِ إِيجَابَا
تَاللَّهِ لَوْ ظَفِرَتْ كَفِّي بِمَطْلَبِهَا ... مَا كُنْتُ عَنْ ضَرْبِ أَعْنَاقِ الْوَرَى آبِى[1]

وكان يتمثل بقول المتنبي:

وَمَنْ عَرَفَ الْأَيَّامَ مَعْرِفَتِي بِهَا ... وَبِالنَّاسِ رَوَّى رُمْحَهُ غَيْرَ رَاحِمِ
فَلَيْسَ بِمَرْحُومٍ إِذَا ظَفِرُوا بِهِ ... وَلَا فِي الرَّدَى الْجَارِي عَلَيْهِمْ بِآثِمِ[2]

(وسار ابنُ تُومَرت إلى أغمات، فنزلوا على الفقيه عبدالحق المَصمودي، فأكرمهم، فاستشارُوه، فقال: «هُنا لا يحميكم هذا الموضع؛ فعليكم بِتِينَمَلَّ، فهي يومٌ عنَّا، وهو أحصنُ الأماكن؛ فأقيمُوا به بُرهَةً كي يُنسى ذكرُكم»، فتجدد لابن تُومرت بهذا الاسمِ ذكرٌ لما عنده[3]، فلما رآهم أهلُ الجبل على تلك الصُّورة، علموا أنَّهم طَلَبَةُ علمٍ؛ فأنزلوهم، وأقبلُوا عليهم، ثم تسامَع به أهلُ الجبل، فتسارعُوا إليهم، فكان ابنُ تُومرت مَنْ رأى فيه جَلادة، عَرَضَ عليه ما في نفسه، فإن أسرع إليه، أضافه إلى خواصِّه، وإن سكت، أعرض عنه. وكَانَ كُهولُهم ينهون شُبَّانهم، ويُحذِّرونهم[4]، وطالت المدةُ، ثم كَثُرَ أتباعُهُ مِن جبال دَرن، وهو جبل الثلج، وطريقُهُ وَعْرٌ ضيِّق.

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٩/٥٥٢)، و«السابق» ص (٣٦)، وانظر: «دولة الإسلام» (٤/١٦٨، ١٧٦، ١٩٥، ١٩٦).

(٢) «وفيات الأعيان» (٥/٥٤).

(٣) أي من خبر الجفر المزعوم، ويحتمل أن أحد المؤرخين من أتباعه هو الذي افترى هذه الفرية تأييدًا لدعوته، ليوهم صدق دعواه المهدية والعصمة، أو أن الذي افتراها ابن تومرت نفسه، والله أعلم.

(٤) في «الوفيات»: (٥/٥١): «وكان يستميل الأحداث وذوي الغرة، وكان ذوو العقل والحلم من أهاليهم يُحَذِّرُونَهُمْ من اتباعه، ويُخَوِّفُونَهُمْ من سطوة الملك».
وقال ابن خلكان - أيضًا -: «ثم إن محمدًا استدنى أشخاصًا من أهل الغرب أجلادًا في القوى الجسمانية أغمارًا، وكان أميلَ إلى الأغمار من أولي الفطن والاستبصار». اهـ من «فوات الوفيات» (٥/٤٨).

قال اليسع في «تاريخه»: «لا أعلم مكانًا أحصنَ من تِينَمَلل؛ لأنها بينَ جبلين، ولا يصِلُ إليهما إلا الفارِسُ، وربما نَزَلَ عن فرسه في أماكنَ صعبةٍ، وفي مواضِعَ يَعْبُرُ على خشبةٍ، فإذا أُزيلت الخشبة، انقطع الدَّرْبُ، وهي مسافة يوم، فشرع أتباعُه يُغيرون، ويقتلُون، وكثُرُوا، وقَووا، ثم غَدَرَ بأهل تِينَمَلَلَ الَّذين آووْهُ، وأمر خواصَّه، فوضعُوا فيهم السيفَ[1]، فقال له الفقيهُ الإفريقي أحدُ العشرة مِن خواصِّه: «ما هذا؟! قومٌ أكرمونا وأنزلونا، نقتلُهم؟!!» فقال لأصحابه: «هذا شكٌّ في عِصمتي، فاقتلُوه، فقُتِلَ».

قال اليسع: (وكُلُّ ما أذكُرُه من حال المصامِدة، فقد شاهدتُهُ، أو أخذتُه متواترًا، وكان في وصيته إلى قومه إذا ظَفِرُوا بمُرَابِطٍ، أو تِلِمْسَاني، أن يُحرِقوه)[2].

(وقبل أن يعطي ابن تومرت الأمر لجيوشه بالانقضاض على المرابطين؛ للاستيلاء على عاصمتهم مراكش، أراد أن يُطَهِّرَ صفوفه من بعض الأشخاص الذين يشك في ولائهم له، فأوعز في عام ٥١٩هـ/١١٢٥م لصديقه الحميم الونشريسي، الذي كان يُظْهِرُ البلاهة، بينما هو عالم، أن يُظْهِرَ ما لديه من علم دُفْعَةً واحدة؛ ليكون ذلك بمثابة المعجزة لابن تومرت، وكان الونشريسي، باتفاق مع ابن تومرت، قد حفظ أسماء مَنْ

(١) وقصة ذلك: «أن أهل تينملل بعثوا إليه بطاعة قبيلتهم «هزميرة الجبل»، وأن سكناه لديهم أصلح له، وأقرب إلى بث دعوته، فسار إليهم، ونزل بتينملل، فأكرمه أهلها أيما إكرام، وأكَّدوا له خضوعهم وطاعتهم، وبايعوه، فرأى المهدي من كثرتهم وحصانة بلدهم ما راق لديه، وكان يخرج إلى الشريعة (أي: مورد الماء الذي يُستقى منه بلا رشاء) في خارجها، ويجلس على حجر مربع أمام المحراب، ويعظ الناس، فلاحظ أن قبيلة «هزميرة» يحضرون دائمًا متقلدين سلاحهم، فسألهم يومًا: «لم تمسكون سلاحكم، وإخوانكم الموحِّدون لا يمسكونه؟»، فتركوا حمل السلاح مدة، وكان قد توجس من كثرتهم وقوتهم، ونظر في أمرهم، فجاءوا ذات يوم إلى سماع الوعظ دون سلاح، وكان الموحدون بالعكس قد تقلدوا سلاحهم، فانقضوا عليهم، وأوسعوهم قتلًا، فقتلوا منهم في ذلك اليوم وفقًا لرواية اليسع نحو خمسة عشر ألف، وسُبيت نساؤهم، ونُهبت أموالهم، وقُسِّمت أراضيهم بين الموحدين». اهـ. من «دولة الإسلام في الأندلس» (١٨٢/٤)، ولكي لا تُحْدِثَ هذه الأعمال رد فعل عند أتباعه، أو تلقى معارضة عند الناس، فإنه كان يظهر بشيء من الخوارق والمعجزات؛ حتى يؤصل في نفوس الناس شرعية ما يقوم به، ويدعو إليه، انظر: «دولة الموحدين» ص (٦٩).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٩/٥٤٤-٥٤٥).

شَعَرَ أنهم يَشُكُّونَ في مهدية ابن تومرت، وكان ـ أيضًا ـ ابن تومرت قد طلب من القبائل تزويده بأسماء المشاغبين، فدفعها إلى الونشريسي، فحفظها، وبعد صلاة الفجر تقدم الونشريسي (الكاذب)، وأعلن أنه جاءه البارحة مَلَكان، وشقا قلبه، وغسلاه، وحشواه علمًا، وحكمة، فاختبره القوم، فعجبوا من شدة حفظه، ثم شهد لابن تومرت بالمهدية. ثم قال: «اعرض عليَّ أصحابك؛ حتى أميز أهل الجنة من أهل النار، وقد أنزل الله ـ تعالَى ـ ملائكته إلى البئر التي في المكان الفلاني، يشهدون بصدقي، وكان المهدي قد وضع فيها رجالًا لهذا الغرض، فسار المهدي وأتباعه إلى ذلك البئر، وبعد أن وقف على رأسها، قال: «يا ملائكة الله، إن عبدالله الونشريسي قد زعم كيت، وكيت»، فقال من فيها: «صدق»، فصَدَّقَهُ الناس، ثم أمر بطمر البئر بحجة أنها مُقَدَّسَةٌ، وواضح أن طمره للبئر كان بسبب خوفه من أن يفضحوا أمره؛ مما سيكون له أسوأ الأثر على دعوته، وكشف زيفها)[1].

● قال الإمام الذهبي ـ رحمه الله ـ يصف هذه المذبحة المروِّعة:

(فلمَّا كان عامُ تسعةَ عشرَ وخمسِ مئة، خرج يومًا، فقال: «تعلمون أن البشير ـ يُريد الوَنْشَرِيسي ـ رَجُلٌ أُمي، ولا يثبت على دابَّة، فقد جعله الله مُبَشِّرًا لكم، مطَّلِعًا على أسراركم، وهو آيةٌ لكم، قد حَفِظَ القرآن، وتعلَّم الرُّكوب»، وقال: «اقرأ»، فقرأ الختمةَ في أربعةِ أيام، وركب حصانًا، وساقه، فبُهِتُوا، وعدُّوها آيةً؛ لِغباوتهم، فقام خطيبًا، وتلا: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧]، وتلا: ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فهذا البشيرُ مطَّلِعٌ على الأنفس، مُلْهَمٌ، ونبيُّكم ﷺ يقول: «إِنَّ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ مُحَدَّثِينَ، وَإِنَّ عُمَرَ مِنْهُمْ»[2]،

---

(١) «دولة الموحدين» ص (٨٦).

(٢) أخرجه البخاري: (٤٢/٧)، (٣٦٨٩) في فضائل أصحاب النبي ﷺ: باب مناقب عمر، من حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ كَانَ فِيمَا قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ نَاسٌ مُحَدَّثُونَ، فَإِنْ يَكُ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَإِنَّهُ عُمَرُ»، وأخرجه مسلم (٢٣٩٨) والترمذي (٣٦٩٤) من حديث عائشة. وقال ابن وهب: تفسير «مُحَدَّثُونَ»: مُلْهَمُونَ، وقال ابن الأثير: «أراد بقوله «مُحَدَّثُونَ» أقوامًا يصيبون إذا ظنوا وحدسوا،=

وقد صَحِبَنَا أَقْوَامٌ أطلعه اللَّهُ على سرهم، ولا بُدَّ مِنَ النظرِ في أمرهم، وتيمُّمِ العدل فيهم، ثم نُودِيَ في جبال المصامدة: «من كان مطيعًا للإمام، فليأتِ»، فأقبلُوا يُهْرَعُونَ، فكانوا يُعرضون على البشير، فَيُخْرِجُ قومًا على يمينه، ويَعُدُّهُم مِن أهل الجنة، وقومًا على يساره، فيقول: «هؤلاء شاكُّون في الأمر»، وكان يُؤتى بالرجل منهم، فيقول: «هذا تائب، ردُّوه على اليمين، تاب البارحة»، فيعترِفُ بما قال، واتفقت له فيهم عجائب، حتى كان يُطلِقُ أهل اليسار، وهم يعلمون أن مآلَهم إلى القتل، فلا يَفِرُّ منهم أحد، وإذا تجمَّع منهم عِدَّةٌ، قتلهم قراباتُهم؛ حتى يقتل الأبُ ابنَه، والابن أباه، والأخُ أخاه.

قال: «فالذي صَحَّ عندي أنهم قُتِلَ منهم سبعون ألفًا على هذه الصفة، ويُسمُّونَهُ التمييز»[1].

ويبدو أن الذي دفع ابن تومرت للقيام بعمليات التمييز هو تراجع عدد كبير من الداخلين في دعوته عنها؛ وذلك بسبب ما تحمله من غُلُوٍّ، وشَطَطٍ، فقام بهذه العملية للتخلص من الذين يشك في إخلاصهم؛ خشية أن يقوى رد الفعل المضاد لدعوته[2].

(لقد علم ابن تومرت أن الباقين من أهلِ وأقارِبِ المقتولين لا تطيب قلوبهم بذلك، فجمعهم، وبَشَّرَهُمْ بانتقال مراكش إليهم، واغتنام أموال المرابطين؛ فسرهم ذلك، وسلَّاهم عن أهلهم، ثم ندبهم إلى قتال المرابطين، وتحول موقف الموحدين من الدفاع

= فكأنهم قد حُدِّثُوا بما قالوا»، وراجع ص(٣١٣).

قال الشيخ شعيب الأرناؤوط معلقًا على استدلال ابن تومرت: (واستشهاد ابن تومرت بالحديث في غير محله، وهو دال على سوء طويته، وجراءته على الله ورسوله، فإن البشير الونشريسي قد باع نفسه من الشيطان، وصار يستلهم منه الحيل الماكرة، والأساليب الخبيثة لإضلال الناس وإفسادهم إرضاءً لسيده ابن تومرت الذي اتخذه مطية لأطماعه، وتحصيل مرامه، فهو من أبعد الناس عن منزلة التحديث الجليلة التي اختص بها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ) اهـ. من حاشية «السير» (١٩/٥٤٦).

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٩/٥٤٦)، وانظر: «دولة الإسلام في الأندلس» (٤/١٨٣).

(٢) «دولة الموحدين» ص (٦٩).

إلى الهجوم، وبعد سلسلة من الحملات الناجحة التي قام بها ابن تومرت على معاقل المرابطين أراد أن يحسم الأمر بإسقاط عاصمة المرابطين مراكش)[١].

فَصْلٌ

● **قال الحافظ الذهبي ـ رحمه الله ـ تَعَالَى ـ:**

(وقال ـ أي عبد الواحد المراكشي ـ: «وكان جُلُّ ما يدعو إليه الاعتقادَ على رأي الأشعري، وكان أهلُ الغَرْب ينافِرُون هذه العلوم، فجمع مُتولي فاس الفقهاء، وناظرُوه، فظهر، ووجد جوًّا خاليًا، وقومًا لا يدرون الكلامَ، فأشاروا على الأمير بإخراجه، فسار إلى مَرَّاكُشَ، فبعثوا بخبره إلى ابن تاشفين، فجمع له الفقهاءَ، فناظره ابنُ وهيب الفيلسوف[٢]، فاستشعر ذكاءه، وقوةَ نفسه، فأشار على ابنِ تاشفين بقتلِهِ، وقال: «إن وقع إلى الْمَصَامِدَةِ قَوِيَ شرُّهُ»، فخاف اللهَ فيه، فقال: «فاحبسه»، قال: «كيف أحبِسُ مسلمًا لم يَتَعَيَّنْ لنا عليه حقٌّ؟ بل يُسافر»، فذهب، ونزل بِتِينَمَلَل، ومنه ظهر، وبه دُفِنَ، فبث في المصامدة العلم، ودعاهم إلى الأمر بالمعروف، واستمالهم، وأخذ يشوق إلى المهدي، ويروي أحاديث فيه، فلما توثق منهم قال: أنا هو، وأنا محمد بن عبدالله، وساق نسبًا له إلى علي[٣]، فبايعوه، وألف لهم كتاب «أعز ما يطلب»، ووافق المعتزلة

---

(١) «السابق» ص (٨٦).

(٢) كان مالك بن وهيب مستشار أمير المسلمين علي بن يوسف ووزيره، وكان فقيهًا زاهدًا ورعًا، اشتغل بالفلسفة، لكنه لم يستطع أن يقيد معارفه الفلسفية ولا أن يبثُّها، «بل أضرب عن النظر ظاهرًا فيها وعن التكلم فيها لما لحقه من المطالبات في دمه بسببها» كما يقول ابن أبي أصيبعة، انظر: «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» ص(٥١٥).

(٣) فادَّعى أنه محمد بن عبدالله بن عبدالرحمن بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن صفوان بن جابر ابن يحيى بن رباح بن يسار بن العباس بن **محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب.**
علَّق الحافظ منصور بن العمادية على هذا النسب قائلًا:
«وفي ذلك نظر من حيث إن محمد بن الحسن لم يُعقب»، انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٩/٥٣٩، ٥٥٢).
فإن قيل: «إن كان انتسب إلى أهل البيت، فلا ينبغي الطعن فيه؛ لأن الناس مصدَّقون في أنسابهم».=

في شيء، والأشعرية في شيء، وكان فيه تشيع، ورتب أصحابه، فمنهم العشرة، فهم أول من لبَّاه، ثم الخمسين، وكان يسميهم المؤمنين، ويقول: ما في الأرض من يؤمن إيمانكم، وأنتم العصابة الذين عنى النبي ﷺ بقوله: «لا يزال أهل الغرب ظاهرين»(١)، وأنتم تفتحون الروم، وتقتلون الدجال، ومنكم الذي يؤم عيسى، وحدثهم بجزئيات اتفق وقوع أكثرها، فعظمت فتنة القوم به، حتى قتلوا أبناءهم وإخوتهم؛ لقسوتهم، وغِلَظِ طباعهم، وإقدامهم على الدماء، فبعث جيشًا، وقال: «اقصدوا هؤلاء المارقين المبدلين الدين، فادعوهم إلى إماتة المنكر، وإزالة البدع، والإقرار بالمهدي المعصوم، فإن أجابوا، فهم إخوانكم، وإلا، فالسنة قد أباحت لكم قتالهم»، فسار بهم عبد المؤمن يقصد مراكش، فالتقاه الزبير ابن أمير المسلمين، فكلموهم بالدعوة، فردوا أقبح رد، ثم انهزمت المصامدة، وقُتِل منهم ملحمة، فلما بلغ الخبرُ ابنَ تومرت قال: «أنجي عبدُ المؤمن؟» قيل: نعم، قال: «لم يُفْقَدْ أحد»، وهوَّن عليهم، وقال: «قتلاكم شهداء».

قال الأمير عزيز في «أخبار القيروان»: «سمَّى ابن تومرت أصحابه بالموحِّدين، ومن خالفه بالمجسِّمين(٢)، واشتهر سنةَ خمسَ عشرةَ، وبايعتْه هَرْغَة على أنه المهدي، فقصده

= فالجواب: أن من يدرس سيرة ابن تومرت، ويسبر شخصيته، يعرف أنه كذَّاب دجَّال، لا يتورع عن أخس الوسائل لبلوغ غاياته وأطماعه، وتحقيق طموحاته، وآية ذلك أنه ادعى المهدية بعد ادعائه النسب الشريف؛ فصار كلابس ثَوْبَيْ زُورٍ، وانظر ص(٤٢٥).

(١) وتمامه: «عَلَى الْحَقِّ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»، أخرجه مسلم في «صحيحه» (١٩٢٥) في الإمارة من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ. والمراد بأهل الغرب في هذا الحديث أهل الشام؛ لأنهم بالنسبة للمدينة النبوية في الجهة الشمالية الغربية. وانظر «فتح الباري»: (٢٩٥/١٣) الطبعة السلفية، وابن تومرت ينتقي النصوص المتشابهة، ويستدل بها، ويفسرها كما يروق له؛ ليكتسب بها ثقة من حوله.

(٢) ترجع هذه التسمية إلى أن ابن تومرت سأل أنصاره الموحدين في الغزوة التاسعة عما يقوله المرابطون عنهم؟ فقالوا: «إنهم لقبونا بالخوارج»، فقال ابن تومرت: «سبقونا بالقبيح، لو كان خيرًا أحجموا عنه، لقبوهم أنتم، فإن الله ذكر في كتابه: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ﴾، قولوا لهم أنتم أيضًا «المجسمون» اهـ. من «دولة الإسلام» ص (١٨٣)، ومن المعلوم المشهور عند أهل العلم أن من علامات أهل البدع الوقيعة في أهل الحديث، وتسميتهم أهل السنة بالحشوية والمجسمة، تنفيرًا عن الحق وتشنيعًا عليه بلباسٍ من اللفظ القبيح، وانظر: «الرد العلمي» للمؤلف ص(٢١٦ - ٢١٧).

الملثمون، فكسروا الملثمين، وحازُوا الغنائم، ووثقت نفوسهم، وأتتهم أمداد القبائل، وَوُحِّدَتْ هنتاتة، وهي من أقوى القبائل»، ثم قال عزيز: «لهم تودُّد، وأدبٌ، وبشاشة، ويلبَسُونَ الثيابَ القصيرةَ الرخيصة، ولا يُخْلون يومًا من طِرادٍ، ومثاقفةٍ، ونضال، وكان في القبائل مفسدون، فطَلَبَ ابنُ تُومرت مشايخَ القبائل، ووعظهم، وقال: لا يَصْلُحُ دينُكُم إلا بالنهي عن المنكر، فابحثوا عن كُلِّ مُفْسِدٍ، فانهوه، فإن لم ينتهِ، فاكتُبُوا إليَّ أسماءَهم، ففعلوا، ثم هدَّد ثانيًا، فأخذ ما تكرَّر من الأسماء، فأفردها، ثم جمع القبائلَ، وحضَّهم على أن لا يغيبَ منهم أحد، ودفع تلك الأسماء إلى البشير، فتأمَّلها، ثم عَرَضَهم رجلًا رجلًا، فمن وجد اسْمَه ردَّه إلى الشمال، ومن لم يجده بعثه على اليمين، ثم أمر بتكتيف أهلِ الشمال، وقال لِقراباتهم: هؤلاء أشقياء مِن أهل النار، فلتقتُلْ كُلُّ قبيلة أشقياءَها، فقتلوهم، فكانت واقعةً عجيبة، وقال: بهذا الفعل صحَّ دينُكم، وقوي أمرُكم»[1].

* * *

«وتضطرب الروايات حول تحديد تاريخ زحف الموحدين على مراكش، وسبب ذلك يعود إلى أن المعركة الفاصلة بين الطرفين جاءت بعد سلسلة معارك دامية؛ فالوصول إلى أسوار مراكش لم يتم بسهولة، بل كُلِّفَ الموحدون اختراقَ كلِّ الخطوط الدفاعية التي أقامها المرابطون، وحصَّنُوها بالقلاع. على أي حال صمَّم ابن تومرت على القضاء على المرابطين بإسقاط عاصمتهم مراكش، فأخذ يستدعي القبائل إلى تينملل ليحشدهم، ويوجههم إلى ذلك الهدف المنشود.

وتوافدت القبائل على ابن تومرت، وقد استعدت للقتال، وتجمع منهم نحو أربعين ألفًا منهم الفرسان، والغالب منهم رجَّالة. وقدم عليهم الونشريسي، ووجههم نحو مراكش، فبدءوا بالزحف نحوها عام ٥٢١هـ/ ١١٢٧م، وقبل وصولهم إلى أسوار

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٩/٥٤٨-٥٥٠).

مراكش خاضوا معارك عديدة مع المرابطين، كانت جميعها لصالحهم[١].

وضرب الموحدون الحصار حول مدينة مراكش مدة أربعين يومًا على أرجح الروايات، وطوال فترة الحصار كانت تدور رحى معارك ضارية بين المرابطين المدافعين عن عاصمتهم، والموحدين الذين كانوا يتمتعون بروح معنوية عالية؛ لكثرة انتصاراتهم على المرابطين.

وقبل بدء القتال دارت أحاديث بين الطرفين، الغرض الأساس منها تحطيم نفسية الخصم قبل مقارعته بالسِّنان، فبادر الموحدون بإرسال رسالة إلى المرابطين يطلبون منهم الاعتراف بمهدية ابن تومرت، والانصياع إليه، فرد أمير المسلمين عليهم مُحَذِّرًا إياهم من عاقبة مفارقة الجماعة، وهكذا لم يستجِبْ أي طرف للآخر.

وأخذ الونشريسي القائد العام للقوات الموحدية، وعبدالمؤمن إمام الصلاة لهم بتنظيم القوات الموحدية لخوض المعركة الفاصلة، وما هي إلا مدة وجيزة حتى اشتبك الطرفان في معركة مروعة استمرت من الصباح حتى الغروب، قُتِلَ فيها في بداية النهار الونشريسي، فخلفه عبدالمؤمن في قيادة الجيش، ولما رأى المصامدة كثرة المرابطين وقوتهم أسندوا ظهورهم إلى بستان هناك، والبستان عندهم يسمى البُحَيْرة، وما أن جن الليل حتى قتل معظم المصامدة، ففرَّ عبدالمؤمن بنفر يسير لا يتجاوز الأربع مئة، ما بين فارس وراجل، وبعد انتهاء المعركة بحثَ الموحدون عن جثة الونشريسي بين جثث القتلى، فلم يعثروا عليها؛ لأن عبدالمؤمن كان قد واراها فورًا، فأشاعوا فيما بينهم أنه رُفِعَ إلى السماء.[٢]

وتابع عبدالمؤمن مع من نجا من القتل سيره نحو تينملل، وعندما وصل إلى هيلانة[٣] استعاد أنفاسه، وحشد جنوده، وأعاد الكرة على مراكش، فهُزِمَ ـ أيضًا ـ،

(١) انظر تفصيل ذلك في «دولة الإسلام في الأندلس» (١٧٨/٤ ـ ١٧٩).

(٢) انظر: «دولة الإسلام» (١٨٨/٤ ـ ١٨٩).

(٣) اسم قبيلة بربرية كانت تسكن بالقرب من مراكش.

وقُتل من أتباعه نحو اثني عشر ألفًا، فعاد أدراجه مع خمسين رجلًا من أتباعه إلى تينملل، وكان البيذق قد سبق عبدالمؤمن إلى ابن تومرت، وأخبره بخبر الفاجعة التي حلت بهم في البحيرة، فسأله ابن تومرت عن عبدالمؤمن، فقال: «هو حي»، فرد مُعَزِّيًا: «الأمر باقٍ»، وأوصاهم بعدم الجزع.

... ترددت أصداء هزيمة البحيرة بين قبائل الموحدين، فزلزلت ثقتهم بابن تومرت، فالمهدي مؤيد من السماء، فكيف يُهْزَم من كان حليفَه اللهُ...، وترتب على هذا التساؤل إعادة النظر في عقيدة المهدي، وعلى الرغم من كل الجهود التي بذلها ابن تومرت لإقناعهم بأن قتلاهم في الجنة، فقد بقيت رواسب الشك في مهديته تُسَاوِرُ نفوسهم؛ عندها لجأ ابن تومرت إلى أسلوب المكر والخداع؛ حتى يعيد الثقة بدعوته، وقيادته، ومهديته، فاتفق مع مجموعة من أتباعه على أن يدفنهم أحياء، وجعل لكل واحد منهم متنفسًا في قبره، وأوصاهم بأن يقولوا إذا سئلوا: «قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا؛ من مضاعفات الثواب على جهاد لمتونة، وعلو الدرجات التي نلنا بالشهادة، فَجِدُّوا في قتال عدوكم، فإن ما دعاكم إليه الإمام المهدي صاحبكم حق»، ووعدهم إذا نفذوا ذلك بأن يخرجهم، ويجعل لهم منزلة رفيعة، ولما ذهب أكثر الليل اجتمع بأشياخ الموحدين، وأوضح لهم بأنهم حزب الله، وأنصار دينه، وطالبهم بالجد في قتال أعدائهم، وطلب منهم إن كانوا في شك مما يقول أن يذهبوا سويًّا إلى قبور قتلاهم في معاركهم مع المرابطين؛ ليحدثوهم بما لقوا من خير، ونعيم، وذهب معهم إلى مكان إحدى المعارك التي نشبت مع المرابطين، وسقط فيها عدد كبير من الموحدين، والتي يُوجَدُ فيها ذلك النفر الذين دفنهم أحياء، ولقنهم ما يقولون.

ولما وصل رفع صوته في المقبرة قائلًا: «يا معشر الشهداء خبرونا ما لقيتم من الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ»، فقالوا: «وجدنا ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على بال بشر»، إضافة إلى ما لقنهم إياه ابن تومرت، عندها ذُهِلَ الناس، وعادت ثقتهم

بالمهدي، وبدلًا من أن يُخْرِجَ المدفونين قام بإغلاق المنافس التي كان قد تركها لهم؛ فماتوا من فورهم؛ لأنه خَشِيَ أن يخرجوا فيذيعوا سرَّه، فيفتضح أمره فتكون كارثة عليه[١].

ورأى ابن تومرت في قرارة نفسه أن الهزائم التي مُنِيَتْ بها قواته ما هي إلا نذير شؤم للإطاحة بكل مخططاته التي سَخَّر حياته من أجلها؛ ليقيم دولته المنشودة، فتفاعلت هذه الأحداث في نفسه لتورثه المرض الذي أودى بحياته بعد فترة وجيزة[٢].

وتكاد تجمع معظم المصادر على أن وفاته كانت عام ٥٢٤هـ، ١١٣٠م، وتذكر المصادر الموحدية أنه لما شَعَرَ بدنو أجله استدعى أصحابه المسمين بالجماعة، وأهل الخمسين، فلما حضروا أخذ يعظهم، واعدًا إياهم بالنصر على المرابطين، ومحذرًا إياهم من الفرقة والتناحر، وأمر عليهم عبدالمؤمن، وطلب منهم السمع والطاعة له ما دام مطيعًا لربه.

وبهذه المواعظ وَدَّعَ ابن تومرت أصحابه، مُعْلِمًا إياهم بأنه راحل إلى ربه في هذه السنة، ولما اشتد عليه مرضه قَدَّم عبدالمؤمن بن علي للصلاة، وأمره بإخفاء وفاته حتى تجتمع كلمة الموحدين على أمير، وأن يتكفل بغسله، ودفنه بجامع تينملل.

وعندما توفي ابن تومرت كفنه عبدالمؤمن بن علي، وصلى عليه، ودفنه سرًّا بمسجده كما أوصاه، وقد كتم أصحابه وفاته مدة ثلاثة أعوام[٣]، ولم يعلنوها إلا في عام ٥٢٧هـ/ ١١٣٢م بعد أن اتفقت كلمتهم على عبدالمؤمن بن علي). اهـ[٤].

وأفضى ابن تومرت إلى ربه، وهو لا يدري مصير دعوته لما لحق أتباعه من هزيمة

(١) وصدق من قال: «من أعان ظالمًا سُلِّط عليه».
(٢) انظر: «السابق» (١٩٠/٤).
(٣) وهذا على رواية ابن صاحب الصلاة وابن القطان كما في «دولة الإسلام» (٢١٩/٤).
(٤) «دولة الموحدين» ص (٨٦-٩١) بتصرف.

نكراء في موقعة «البحيرة»، وإن كان نجح في ترسيخ دعوته في قلوب أتباعه حتى صدقوه، وآمنوا بمهديته[١]، وعلى رأسهم عبدالمؤمن تلميذ ابن تومرت الوفي، الذي حمل الراية بعده، وبويع سرًّا سنة ٥٢٤هـ، ثم علنًا سنة ٥٢٦هـ[٢]. وما أن استتب له الأمر حتى عاد يناوش المرابطين، واستمر صراعه معهم عبر سلسلة طويلة من القتال المرير انتهت ببناء دولة الموحدين على أنقاض دولة المرابطين، التي اتسعت لتشمل المغرب الأقصى كله، ثم المغربين الأدنى، والأوسط، حتى امتدت دولة الموحدين من طرابلس شرقًا إلى السوس الأقصى غربًا، ثم دخل عبدالمؤمن الأندلس سنة ٥٤٦هـ، ودان له كثير من بلاد الأندلس.

* * *

(١) قال ابن خلكان ـ رحمه الله ـ: (ولم يفتح شيئًا من البلاد، وإنما قرر القواعد ومهَّدها، ورتب الأحوال ووطدها، وكانت الفتوحات على يد عبدالمؤمن). اهـ. «وفيات الأعيان» (٥/٥٥).

(٢) أي بعد وفاة ابن تومرت بنحو عامين، وهذا على رواية صاحب «روض القرطاس» كما في «دولة الإسلام» (٤/١٩٨، ٢٢٠، ٢٢١).

ومن الطريف ما ذكره ابن صاحب الصلاة أن عبد المؤمن ـ جريًا على سنن سلفه في الدجل ـ دبَّر حيلة «الطائر والشبل»، ليقنع الموحدين ببيعته، فقد درَّبهما خُفيَة خلال فترة البيعة الخاصة ـ أي على مدى ثلاث سنوات ـ: الطائرَ ـ ولعله كان الببغاء ـ على أن يدعو له بالخلافة، والشبلَ: على أن يجلس بين يديه وادعًا هادئًا، ثم دعا بعد ذلك الأشياخ الموحدين إلى مجلسه، واستشارهم في أمر من يتولى الخلافة، وهنا دعا الطائر له بنطقه: «العز والتمكين للخليفة عبدالمؤمن أمير المؤمنين»، ومثل الشبل بين يديه، رابضًا مطيعًا لإشارته، فتأثر الحاضرون بذلك، وبايعوه، كما في «دولة الإسلام» (٤/٢١٩ ـ ٢٢٠).

الْعَقِيدَةُ التُّومَرْتِيَّةُ

● إن العقيدة (التومرتية) كانت مزيجًا من أفكار منحرفة، وخليطًا من آراء الفرق الضالة؛ كالرافضة، والمعتزلة، والأشاعرة، والخوارج:

ابْنُ تُومَرْتَ رَائِدُ الأَشْعَرِيَّةِ(*) فِي الْمَغْرِبِ الإِسْلَامِيِّ

(نهج ابن تومرت نهج الأشاعرة في تأويل بعض صفات الله ـ سبحانه وتعالى ـ؛ حيث يذكر ابن خلدون أن ابن تومرت هو الذي حمل أهل المغرب على القول بالتأويل، والأخذ بالمذهب الأشعري في كافة العقائد، كما ذكر المراكشي أن ابن تومرت ضمَّن تصانيفه مذهب الأشاعرة في كثير من المسائل؛ حيث كان «... جُلُّ ما يدعو إليه علم الاعتقاد على طريقة الأشعرية...»، أما المقريزي فيرى أن ابن تومرت تعلَّم المذهب الأشعري أثناء وجوده في بلاد العراق، فلما عاد إلى بلاد المغرب، وأخذ بتعليم أصحابه، علَّمهم المذهب الأشعري، فكان ذلك سببًا في انتشار هذا المذهب في بلاد المغرب.

(*) اعلم ـ رحمك الله ـ أنه ليس المقصود بذلك أن العقيدة الأشعرية لم تكن تعرف في المغرب الإسلامي قبل ابن تومرت، فقد دخلته قبله في وقت مبكر، فمن علماء الأشاعرة المغاربة قبل ابن تومرت: الفقيه أبو عمران الفاسي الذي رحل إلى بغداد عام (٣٩٩هـ)، وتلقى أصول المذهب الأشعري على القاضي أبي بكر الباقلاني، ومنهم: أبو الوليد الباجي (ت٤٧٤هـ)، وأبو بكر محمد بن الحسن المرادي (ت٤٨٩)، ويقال إنه أول من أدخل العقيدة الأشعرية إلى المغرب الأقصى، ومنهم: القاضي أبو بكر بن العربي المعافري (ت٥٤٣هـ) الذي رحل إلى بغداد، وأخذ العقيدة الأشعرية عن أبي حامد الغزالي، وعاد إلى المغرب سنة (٤٩٤هـ).
إذن لا شك أن أهل المغرب الإسلامي عرفوا العقيدة الأشعرية قبل ظهور ابن تومرت، لكن هذه المعرفة بقيت محصورة في «أفراد» من العلماء، ولم يندبوا أنفسهم إلى الدعوة إليها، ولم يكن لها وجود في مناهج التعليم، في حين تغير الحال جذريًّا بعد عودة ابن تومرت من رحلته المشرقية، حيث حمل لواء الدعوة إلى الأشعرية، وشنع على مذهب السلف، وأعلن الحرب على أهله، وتمكن من فرض العقيدة الأشعرية في بلاد المغرب بمكر الثعلب، وغدر الجمل، وقوة السيف، انظر: «السلفية وأعلامها في موريتانيا» ص(٢٢٠ ـ ٢٢٤).

إن ابن تومرت من كبار الدعاة إلى المذهب الأشعري، بل أخذ منهم أكثر المسائل إلا أنه في إثبات الصفات، قد وافق المعتزلة في نفيها، وفي مسائل قليلة غيرها)[١].

● **لقد أصبح ابن تومرت فيما بعد من أعلام الأشاعرة لسببين.**

(**الأول:** أنه هو الذي فتح الباب في بلاد المغرب لدخول التأويل الكلامي، ولم يقتصر الأمر على هذا، بل تبنى ـ بصفته إمامًا مطاعًا ـ هذا الجانب، فكان لسلطته الدور الأكبر في انحسار مذهب أهل السنة، وفُشُوِّ مذاهب المتكلمين.

الثاني: تأليفه المرشدة[٢]، وقد تكلمنا عنها، وهي مستقاة من مذهب الأشاعرة، ولم يقتصر الأمر على هذا بل كان يفرض هذه العقيدة على الناس؛ بحيث تدرس للعوام؛ وقسمهما إلى سبعة أحزاب عدد أيام الأسبوع، وقال لهم: «إن من لا يحفظ هذا التوحيد فليس بموحِّد، وإنما هو كافر لا تجوز إمامته، ولا تؤكل ذبيحته»، وأخذهم بقراءة حزب واحد منه كل يوم إثر صلاة الصبح، «فصار هذا التوحيد عند قبائل المصامدة كالقرآن العزيز، لأنه وجدهم قومًا جهلة لا يعرفون شيئًا من أمر الدين، ولا من أمر الدنيا»[٣].

لقد كان أهل المغرب في عافية من بلاء أهل الكلام، متبعين الكتابَ والسنةَ على مذهب مالك، وأهل المدينة، مشتغلين بالقرآن الكريم، وأحاديث الصحيحين، والموطإ، وغيرها، وكانوا في باب الصفات على مذهب السلف الصالح، متبعين إمامَهُمْ مالك ابن أنس ـ رحمه الله ـ، وأصحابه، الذين لم يُعْرَفْ عن أحد منهم القول بالتشبيه، والتجسيم[٤] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾.

---

(١) «دولة الموحدين» ص (٤٩).

(٢) وقد انتقد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله «المرشدة»، في «مجموع الفتاوى» (١١/٤٧٦ ـ ٤٩١)، وقال: «وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتاب كبير» (١١/٤٨٧).

(٣) «الأثر السياسي للعلماء» ص(٢٢٠)، نقلًا عن «روض القرطاس» ص(١٧٧).

(٤) انظر: «دولة الموحدين» ص (٥٢).

● يقول المؤرخ المغربي السلاوي:

«... وأما حالهم - يعني أهل المغرب - في الأصول، والاعتقادات، فبعد أن طهرهم الله من نزعة الخارجية أولًا، والرافضية ثانيًا، أقاموا على مذهب أهل السنة والجماعة مقلدين للجمهور من السلف - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - في الإيمان بالمتشابه[1]، وعدم التعرض له بالتأويل، مع التنزيه عن الظاهر...، واستمر الحال على ذلك مدة، إلى أن ظهر محمد بن تومرت مهدي الموحدين في صدر المئة السادسة»[2].

لقد سمى ابن تومرت أتباعه بالموحدين تلاعبًا بالأسماء، وتحريفًا لمعانيها، وتعريضًا بالمرابطين الذين اتهمهم كذبًا وزورًا بالتجسيم؛ ومن ثَمَّ كفَّرهم، واستحلَّ قتالهم، وسَفَكَ دماء الآلاف المؤلفة منهم، واستحل أموالهم، وسبى نساءهم[3].

قال الذهبي - رحمه الله -: (قال اليسع بنُ حزم: سَمَّى ابنُ تُومرت المرابطين بالمجسِّمين، وما كان أهلُ المغرب يدينون إلا بتنزيه الله - تَعَالَى - عما لا يجب وصفُه بما يجب له، مع تركِ خوضهم عمَّا تقصر العقولُ عن فهمه.

إلى أن قال: فكفَّرهم ابنُ تُومرت لجهلهم العرضَ والجوهرَ[4]، وأن من لم يَعْرِفْ ذلك لم يعرفِ المخلوقَ من الخالق، وبأن من لم يُهاجِرْ إليه، ويُقاتل معه، فإنه حلالُ الدم، والحريم، وذكر أن غضبَه لله، وقيامَه حِسبةٌ)[5].

---

(١) انظر: «الإمام ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل» د. محمد السيد الجليند ص (٢٥ - ٧١)، (١٤٩ - ١٨٥).

(٢) «دولة الموحدين» ص (٦٤).

(٣) «السابق» ص (٥٢)، (١٠٧-١٠٨).

(٤) وذلك لأنه لما ناظر العلماء تجنب مناظرتهم في صميم علوم السلف كالقرآن والحديث والفقه، وغلبهم بالعلوم التي كان المرابطون ينفرون منها كالفلسفة والمنطق والكلام، ولعل أحسن تلخيص لموقف العلماء من الفلسفة في عهد المرابطين ما نجده في «وصية القاضي أبي الوليد الباجي لولديه» محذرًا من «قراءة شيء من المنطق وكلام الفلسفة، فإن ذلك مبني على الكفر والإلحاد، والبعد عن الشريعة»، كما نقله في «الأثر السياسي» ص(١٢١)، وقال المقري وهو يتكلم عما كان يشتغل به طلبة العلم في عهد المرابطين: «وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم» اهـ. من «نفح الطِّيب» (١/ ٢٢١).

(٥) «سير أعلام النبلاء» (١٩/ ٥٥٠-٥٥١)، وانظر: «السلفية وأعلامها في موريتانيا» ص(٢٠٤-٢٠٧).

تَأَثُّرُ ابْنِ تُومَرْتَ بِالْمُعْتَزِلَةِ

إلى جانب تأثره بالمذهب الأشعري: تأثر ابن تومرت بمذهب المعتزلة؛ حيث قال ببعض آرائهم، فسَمَّى مرتكب الكبيرة بالفاسق، ولم يُسَمِّهِ بالمؤمن، أو الكافر، وهذا قريب من مذهب المعتزلة.

كما وافقهم في نفي الصفات عن الله ـ سبحانه ـ وسمَّى ذلك توحيدًا؛ إذ قال حينما تحدث عن صفات الله: «واشْتَغِلُوا بتعليم التوحيد؛ فإنه أساس دينكم، حتى تنفوا عن الخالق التشبيه، والشريك، والنقائص، والآفاق، والحدود، والجهات، ولا تجعلوه ـ سبحانه ـ في مكان، ولا في جهة؛ فإنه ـ تَعَالَى ـ موجود قبل الأمكنة والجهات؛ فمن جعله في جهة ومكان فقد جسَّمه، ومن جسمه فقد جعله مخلوقًا، ومن جعله مخلوقًا فهو كعابد وثن»، لقد تبنى ابن تومرت مذهب المعتزِلَةِ في الأسماء والصفات؛ حيث نفى كل ما عساه أن يوهم ـ في زعمه ـ الشبه والمثلية لله ـ سبحانه ـ ولو كان ذلك من الأسماء والصفات الثابتة لله في الكتاب والسنة؛ ولهذا سمى أصحابه بالموحدين؛ لأنهم ـ في رأيه ـ هم الذين يوحدون الله؛ لنفيهم الصفات عن الله ـ سبحانه وتعالى ـ، كما كان يسمي أتباعه بالمؤمنين، ويقول لهم: ما على وجه الأرض من يؤمن إيمانكم[١].

لقد استعمل الموحدون القوة في فرض عقائدهم المختلطة على الشمال الأفريقي، واقتدوا بالمعتزلة في زمن المأمون العباسي، في فرضهم على الناس عقائدهم تحت شعار الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر[٢].

---

(١) «دولة الموحدين» ص (٤٨-٤٩)، وانظر: «دولة الإسلام» (٢١٣/٤ ـ ٢١٤).
(٢) «السابق» ص (٥١).

ذِكْرُ مَا وَافَقَ فِيهِ الرَّافِضَةَ

ومما وافق فيه الرافضة جعلُه الإمامةَ شعارًا لدعوته، فقد قال في كتابه «أعز ما يُطْلَب»: «ولا يصح قيام الحق في الدنيا إلا بوجوب اعتقاد الإمامة في كل زمان من الأزمان إلى أن تقوم الساعة، ما من زمان إلا وفيه إمام لله قائم بالحق في أرضه من عاد إلى نوح، ومن بعده إلى إبراهيم، ولا يكون الإمام إلا معصومًا من الباطل ليهدم الباطل، لأن الباطل لا يهدم الباطل».

إلى أن يقول: «والإمامة هي عمدة الدين وعموده على الإطلاق في سائر الأزمان» ثم يقول بعد كلام: إنه «لا يكذب بهذا، إلا كافر أو جاحد أو منافق أو زائغ أو مبتدع أو مارق أو فاجر أو فاسق، أو رَذْلٌ أو نَذْلٌ، لا يؤمن بالله واليوم الآخر»(١)

ووافق الرافضة أيضًا في ادعائهم العصمة لأئمتهم(٢)؛ وذلك أنه ادعى العصمة لنفسه، وصار أتباعه يطلقون عليه لقب «المعصوم»، دون ذكر اسمه؛ لاشتهاره به.

وقد حاول ابن تومرت أن يتدرج في إظهار هذا الأمر في بادئ أمره، فبدأ أولًا بالتلميح لهم، ثم صرَّح بدعوى العصمة لنفسه، وأنه المهدي المعصوم، وروى في ذلك أحاديث كثيرة، ولم يتورع عن الكذب في دعواه أنها تتمثل فيه، لقد سلك مع أتباعه مسلك التدرج، فأقنعهم بنسبه العربي الهاشمي، ثم بالمهدية، ثم بالعصمة.

والعصمة عند أهل السنة والجماعة لم تثبت إلا للأنبياء، والرسل - عليهم الصلاة والسلام -، فيما يُبَلِّغُونَ عن الله من شرع، ولم يقولوا بها لسواهم، حتى لكبار الصحابة، الذين خصهم الله بالفضل؛ كأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وغيرهم.

---

(١) «دولة الإسلام في الأندلس» (٤/٢٠٦ - ٢٠٧).

(٢) قال ابن خلدون: «وكان من رأيه القول بعصمة الإمام علي ﷺ على رأي الإمامية، من الشيعة»، انظر «سير أعلام النبلاء» (١٩/٥٤٨) هامش رقم (١).

إن ابن تومرت بهذا النهج يكون قد وافق الرافضة الاثني عشرية الذين قالوا بالعصمة لأئمتهم؛ حيث يقولون بوجوب عصمتهم من الكبائر، والصغائر، والنسيان؛ كما قالوا: إن الإمام كالنبي يجب أن يكون معصومًا من جميع الرذائل والفواحش، ما ظهر منها وما بطن، من سن الطفولة إلى الموت، عمدًا وسهوًا، كما يجب أن يكون معصومًا من السهو، والخطإ، والنسيان، وهكذا نرى كيف غالى ابن تومرت في القول بالعصمة لنفسه، وهذا بلا شك انحراف عقدي خطير؛ **لأن من جعل بعد الرسول ﷺ معصومًا يجب الإيمان بكل ما يقوله فقد أعطاه معنى النبوة، وإن لم يعطه لفظها،** بل لم يكتفِ بهذا الأمر؛ حيث كان يأمر بقتل كل من يشك في عصمته.

ولكي يُؤَصِّلَ هذا الادعاء الكاذب عند أتباعه ألف لهم كتاب «أعز ما يطلب[1]»، وأمرهم بقراءته، بل حفظِهِ، وهذا بلا شكٍّ مما أصَّل فكر ابن تومرت، ومحبته في نفوس أصحابه.

إن عقيدة العصمة والمهدية التي غَرَسَهَا ابن تومرت في أصحابه سهلت له القضاء على خصومه، ودفع قبائل المصامدة ومن حالفها إلى مقاتلة المرابطين[2].

ومما اقتبسه ابن تومرت من الشيعة الاعتقاد في «الجفر»، بل حُكي أنه ادَّعى أنه اطلع على كتاب «الجفر»، ومنه تَعَرَّفَ ـ في زعمه ـ على صفات عبدالمؤمن بن علي حين لقيه في ملَّالة[3].

فمن ثم قال فيه عبدالواحد المراكشي: «وكان يبطن شيئًا من التشيع»[4].

* * *

(١) ويمكن اعتبار كتابه «أعز ما يُطلب» وصية ابن تومرت العقيدية والسياسية، فلقد شكل ما فيه من تعاليم ومبادئ ـ خاصة بالإمامة والزعامة السياسية والدينية ـ أساس الدولة الموحدية الروحي والسياسي.

(٢) «دولة الموحدين» ص (٤٦ـ ٤٨) بتصرف.

(٣) انظر ص(٣٨٩).

(٤) «المعجب» ص(٢٧٥).

ذِكْرُ مَا وَافَقَ فِيهِ الخَوَارِجَ

أَوَّلًا: التَّهَوُّرُ فِي تَكْفِيرِ المُسْلِمِينَ:

(لقد اشتط ابن تومرت، وانحرف عن المنهج الصحيح من أجل تحقيق أهدافه؛ ولذلك نجده كفَّر من لم يُؤْمِنْ بما يقول، ويَعْتَنِقْ ما يدعو إليه، واستباح دمه، ولو كان من أتباعه، كما قال بكفر دولة المرابطين، وَوُجوب جهادها، ولتأصيل هذا المبدإ في نفوس أصحابه؛ صرَّح به في أكثر من مناسبة، كما ضَمَّنَهُ كتبه التي أَلَّفها لهم، ورسائله التي كان يبعثها إلى الموحدين حيثما كانوا؛ حيث جاء في إحدى رسائله أن المرابطين قد عملوا «... على إهلاك الحرث والنسل، والاعتداء على الناس في أخذ أموالهم، وخراب ديارهم، وفساد بلادهم، وسفك دمائهم، واستباحوا أكل أموال الناس بالباطل، وأخذ أموال اليتامى، والأرامل...»(*).

وقال ابن تومرت في رسالته إلى علي بن يوسف بن تاشفين ـ رحمه الله ـ، والتي

(*) وقد تكون هذه الاتهامات الصادرة من خصم ظلوم من الكذب الذي لم يكن يتورع عنه ابن تومرت من أجل تثبيت دعوته، ومع أننا لا ننزه الدولة المرابطية ـ عن الخطإ واضطراب الأحوال، وطروء صور من الانحراف عن الشرع في عهدها الأخير ـ إلا أن علاج هذا كان النصح المخلص والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا أن يفعل ما فعل، وعلى كلٍّ تبقى هذه الدولة المجيدة صفحة مشرقة في التاريخ الإسلامي عامة، وتاريخ المغرب الإسلامي خاصة، فقد عاشت عمرها كله في الجهاد في سبيل الله لم تضع السيف قط، وكان للمرابطين سمعة طيبة في التعفف عن أموال الرعية، وإقامة العدل، وإغاثة الملهوف، وقمع الظلم، وإشاعة الإصلاح، والتمسك بالخلافة العباسية، ووحدة الجماعة المسلمة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ابتغاء رضى الله سبحانه، فمِن ثَمَّ رغب فيهم الناس وأحبوهم، واستغاثهم أمراء الأندلس لإنقاذهم من النصارى، وعبر يوسف بن تاشفين بالمرابطين وهزم النصارى شر هزيمة في معركة «الزلَّاقة» التي أصبحت عند المغاربة والأندلسيين مثل يومي «القادسية»، و«اليرموك»، ولم يأخذ شيئًا من الأسلاب والغنائم، بل آثر بها ملوك الأندلس، وعاد إلى المغرب، قال القاضي ابن العربي: «ولو لم يكن للمرابطين فضيلة،ولا تقدم، ولا وسيلة إلا وقعة الزلاقة؛ لكان ذلك من أعظم فخرهم» كما في: «الحلل الموشية» ص(١٤٠)، وانظر: «السلفية وأعلامها في موريتانيا» ص(١٧٢-١٧٣)، «فقه التمكين عند دولة المرابطين».

اعْتُبِرَتْ «إعلان حرب»:

«مِنَ القائم بدين الله، العامل بسنة رسول الله، محمد بن عبدالله - وفقه الله -، إلى المغرور بدنياه علي بن يوسف، أما بعد، فإنا ما وجدنا لأكثركم من عهد، وإن وجدنا أكثركم لفاسقين، لم تخشوا عقوبة رب العالمين، ولم تتفكروا فيمن حولكم من الظالمين، الذين غووا فأصبحوا نادمين، فتبعهم الناس أجمعين، فإذا هم أخسر الخاسرين، وقد أمرني الله بإدحاض حجة الظالمين، ودعاء الناس إلى اليقين، ونسأل من الله أجر المحسنين. لا تغتروا؛ فإن المسلمين إليكم قادمون؛ لقتال من زاغ وجنف، وكفر بنعمة الله، وقد جاء في التنزيل أنكم لستم بمؤمنين، ولا تؤمنون بلا إله إلا الله، وإنها كلمة تقولونها عند الخوف والتعجب، وتارك واحدة من السنة كتاركها كلها؛ ومن أجل ذلك دماؤكم حلال، ومالكم فيء، وقد بينا لكم، وأوضحنا السبيل، وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، والسلام على من اتبع الهدى، وخشي الرحمن»[١].

ويذكر المراكشي أنه لما تَوَجَّهَ جيش الموحدين إلى قتال المرابطين سنة ٥١٧هـ، أوصى أفراد ذلك الجيش بقوله: «اقصدوا هؤلاء المارقين المبدلين، الذين تسموا بالمرابطين، فادعوهم إلى إماتة المنكر، وإحياء المعروف، وإزالة البدع والإضرار بالإمام المهدي المعصوم، فإن أجابوكم فهم إخوانكم، وإن لم يفعلوا فقاتلوهم؛ فقد أباحت لكم السنة قتالهم...».

وبالإضافة إلى هذه التهم الواضحة الصريحة التي قال بها ابن تومرت ضد دولة المرابطين، فإن القارئ لكتاب «أعز ما يطلب» يدرك أن ابن تومرت قد شحنه بالافتراءات، والدعاوَى الباطلة ضدهم، بل إنه قد أفرد فصولًا خاصة منه لهذا الغرض[٢].

(١) «السابق» ص (٨٣) نقلًا عن: «أخبار المهدي ابن تومرت» للبيذق ص (١١).
(٢) فقد ادعى أنهم المقصودون ببعض أحاديث أشراط الساعة، وأنهم «حفاة، عراة، عالة، رعاء الشاء، جاهلون بأمر الله، وأنهم في آخر الزمان، ويتطاولون في البنيان، وأنهم صم بكم، وأن في أيديهم سياطًا=

وقد تنبه المرابطون لهذه التهم الموجهة ضدهم، فأخذوا بالتصدي لها؛ حيث بينوا للناس كذب تلك التهم التي ألصقها بهم ابن تومرت، وأنها مخالفة للحقيقة، ولكن هذا العمل لم يثن ابن تومرت عن حربه الدعائية، بل إنه كثَّف جهوده في هذا الميدان، ومما جاء في إحدى رسائله التي وجهها لهذا الغرض «واعلموا ـ وفقكم الله ـ يعني أتباعه ـ أن المجسمين، والمكابرين، وكل من نُسِبَ إلى العلم، أشد في الصد عن سبيل الله من إبليس اللعين؛ فلا تلتفتوا إلى ما يقولونه؛ فإنه كذب، وبهتان، وافتراء على الله، ورسوله»، بل أقنعهم بأن جهاد المرابطين فرضٌ عليهم، كما فُرِضَ على الصحابة جهاد الكفرة «فالدين الذي جاهدوا عليه هو الدين لا يحول، ولا يزول، حتى ينفخ في الصور، والسنة التي قاتلوا عليها هي هذه لا تتبدل، ولا تتغير، حتى يرث الله الأرض ومن عليها.. فجهاد الكفرة الملثمين قد تعين على كل من يؤمن بالله، واليوم الآخر، لا عذر لأحد في تركه، ولا حجة له عند الله؛ فإنهم سَعَوْا في هدم الدين، وإماتة السنة».

كان هذا هو توجيه ابن تومرت لأتباعه في حملته الإعلامية الكاذبة ضد دولة المرابطين السنية، التي أقامت كيانها على مذهب أهل السنة والجماعة، والدعوة إلى الله، والجهاد في سبيله على هدى من سنة رسول الله ﷺ؛ فقد طعن في عقيدتهم، ووصفهم بأنهم مجسمون، وكفار، لا تجوز طاعتهم، ولا الولاء لهم، بل يجب جهادهم؛ ولهذا قاتل الموحدون المرابطين قتالَ المسلمين للكفار[1] حسب اعتقادهم، وما ذلك إلا بسبب أن ابن تومرت قد نَحَا في حربه للمرابطين منحى فكريًّا عقديًّا،

= كأذناب البقر يعذبون بها الناس، وأنهم يغدون في سخط، ويروحون في لعنة.. إلى أن قال: «وجملة علاماتهم عشرون أخبر الرسول بجميعها قبل وجودهم، فظهرت كلها على وفق ما أخبر به»، وهكذا حاول أن يوظف بعض نصوص أشراط الساعة لخدمة مآربه، والتشنيع على المرابطين، انظر: «دولة الإسلام في الأندلس» (٤/٢١٠ ـ ٢١١).

(١) ولهذا استحلوا أموالهم، وخربوا ديارهم، وسبوا نساءهم، وسفكوا دماء رجالهم، وباعوا أولادهم، وأجهزوا على جريحهم، وتعقبوا من فرَّ منهم، ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾، انظر: «دولة الإسلام في الأندلس» (٤/١٩٢)، وكان ابن تومرت يرى أن قتال المرابطين واجب على المسلمين جميعًا، وأن قتالهم أكبر وأوجب من قتال النصارى، انظر: «الأثر السياسي للعلماء» ص(٢١٧).

غالى فيه حتى أصبح العَداء للمرابطين اتجاهًا فكريًا واضحًا عند ابن تومرت، وأتباعه المخلصين لدعوته، ومما لا شك فيه أن هذا الاتجاه الذي حدده ابن تومرت من دولة المرابطين، قد أثر على معنوياتها، ثم على كيانها السياسي؛ وذلك لأن كثيرًا من الناس قد تبنوه، ومن ثم انبروا للعمل على حرب هذه الدولة، والسعي إلى إسقاطها؛ لتقوم دولة ابن تومرت على أنقاضها[(١)].

ثَانِيًا: التَّهَوُّرُ فِي سَفْكِ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ، بِمَا فِي ذَلِكَ دِمَاءُ أَتْبَاعِهِ:

قال الإمام المحقق ابن قَيِّم الجوزية ـ رحمه الله ـ تَعَالَى ـ:

(أما مهدي المغاربة محمد بن تومرت، فإنه رجل كذاب ظالم متغلب بالباطل، ملك بالظلم، والتغلب، والتحيل، فقتل النفوس، وأباح حريم المسلمين، وسبى ذراريهم، وأخذ أموالهم، **وكان شرًا على الملة من الحجاج بن يوسف بكثير.**

وكان يودع بطن الأرض في القبور جماعة من أصحابه أحياءً يأمرهم أن يقولوا للناس إنه المهدي الذي بشر به النبي ﷺ، ثم يردم عليهم ليلًا؛ لئلا يُكَذِّبُوهُ بعد ذلك، وسمَّى أصحابَه الجهمية «الموحِّدين» نفاة صفاتِ الرب، وكلامِهِ، وعلوِّهِ على خلقه، واستوائِهِ على عرشِهِ، ورؤية المؤمنين له بالأبصار يوم القيامة، واستباح قتل من خالفهم من أهل العلم، والإيمان، وتسمى بالمهديِّ المعصوم). اهـ[(٢)].

● وقال الإمام الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ تَعَالَى ـ:

(وقد رأيت لبعضهم في سيرة ابن تومرت هذا مجلدًا في أحكامه، وإمامته، وما كان في أيامه، وكيف تملَّك بلاد المغرب، وما كان يتعاطاه من الأشياء التي توهم أنها أحوال بررة، وهي محالات لا تصدر إلا عن فجرة، وما قَتَلَ من الناس، وأَزْهَقَ من

---

(١) «دولة الموحدين» (٦٤ـ٦٦).
(٢) «المنار المنيف» ص (١٥٣).

الأنفس)[١]. اهـ.

«لقد تساهل ابن تومرت في إراقة الدماء دونما مسوغ شرعي؛ حيث كان لا يتردد في ذلك، حينما يرى أنه يخدم دعوته، أو يحقق شيئًا من مطامحه، مهما كانت التضحيات المقدمة لهذا الغرض، وقد تأصل هذا العمل عند ابن تومرت؛ حيث ألبسه لباسًا دينيًّا، حتى أصبح اتجاهًا دَعوِيًّا واضحًا في دعوته، ومن نماذج عمله في هذا الميدان ما ذكره ابن القطان ـ أحد تلاميذ ابن تومرت ـ أنه كان يَعِظُ تلاميذه وأنصاره في كل وقت «... ومن لم يحضر أُدِّبَ، فإن تمادى قُتِلَ، وكل من لم يحفظ حزبه عُزِّرَ بالسياط، وكل من لم يَتَأَدَّبْ بما أدب به ضُرِبَ بالسوط بالمرة والمرتين، فإن ظهر منه عناد، وتَرَكَ امتثال الأوامر قُتِلَ، ومن داهن قُتِلَ».

كما ذكر كل من البيذق، وابن القطان، وغيرهما من المؤرخين، أن ابن تومرت كان يقوم بما يسمى بعملية **التمييز** لأتباعه؛ حيث يَقْتُلُ كلَّ من يشك في ولائه لدعوته، وقد ذكر لنا البيذق وصفًا لعملية التمييز التي قام بها ابن تومرت قبل موقعة البحيرة سنة ٥٢٤هـ؛ حيث قال: «فأمر بالميز، فكان البشير يخرج بالمخالفين المنافقين، والخبثاء من الموحدين، حتى امتاز الخبيث من الطيب، ورأى الناس الحق عيانًا، وازداد الذين آمنوا إيمانًا، وذاق الظالمون النار، فظنوا أنهم مواقعوها، وما لهم عنها من محيص... فمات يومئذ من الناس خمس قبائل ...»[٢].

ثَالِثًا: الْخُرُوجُ عَلَى الْإِمَامِ الشَّرْعِيِّ بِالسَّيْفِ:

وهذا انحراف عما استقر عليه مذهب أهل السنة والجماعة، وعدول عن هديهم في الصبر على الأئمة، ولو كانوا جائرين، فكيف بالعادلين المجاهدين «المرابطين»؟

لقد كان أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين (٥٣٧هـ)، ثاني أمراء المرابطين

---

(١) «البداية والنهاية» (١٢/١٨٦-١٨٧).

(٢) «دولة الموحدين» ص (٦٦-٦٧).

الذي ظهر ابن تومرت في عهده، كان يُعَدُّ من الشخصيات النادرة في التاريخ، فقد كان من أصلح الحكام وأشدهم تمسكًا بالدين، عُرف بالقوة، والعدل، وامتاز بالعلم، والورع، والاستقامة، وحسن الخلق، والحزم، والنباهة، وكان مثل أبيه معظِّمًا للعلماء، لا يقطع أمرًا دون مشورتهم، والأخذ بفتياهم[١]، أما محمد بن تومرت فقد (كان في الحقيقة داعية سياسيًّا مصموديًّا، يسعى إلى توحيد قبائل مصمودة، وحفزها على التخلص من سلطان صنهاجة، والتغلب عليها، وإقامة دولة مصمودية مكانها)[٢].

عَوَامِلُ التَّمْكِينِ لِدَعْوَةِ ابْنِ تُومَرْتَ

الأَوَّلُ: شَخْصِيَّتُهُ.

لقد اجتمع في شخصية ابن تومرت مقوماتٌ فائقةٌ، أهَّلته للقيادة، فقد كان رجل دين، ورجل علم، ورجل سياسة؛ جمع بين العبادة، والزهادة، والتقشف[٣]، وبين الذكاء، وقوة النفس، والتبحر في العلم، وتشجيع النشاط العلمي في أتباعه، وبين السياسة؛ حيث كان المخطط الأول، بل الوحيد، لقيام دولة الموحدين، ورسم خطوطها العريضة.

---

(١) انظر: «السلفية وأعلامها في موريتانيا» ص(٢١٢)، و«دولة الإسلام في الأندلس» (٤/٥١:٥٤، ٥٨، ٢٤١:٢٤٤).

(٢) «أطلس تاريخ الإسلام» ص (١٨١).

(٣) ولم يلبس ابن تومرت قط سوى ثياب الصوف من قميص وسراويل وجبة، وقد يرتدي الثياب المرقعة، ولا يقبل على شيء من متاع الدنيا، حتى قيل إنه كان يقتات من غزل أخت له في كل يوم رغيفًا بقليل من سمن أو زيت، ولم يتحول عن ذلك حينما سما شأنه، وأقبلت عليه الدنيا، وكان ظهور مثل هذه الشخصية المبهرة في ذلك المجتمع البربري الساذَج، الذي اختاره مسرحًا لدعوته، والذي كان يخيم عليه الجهل المطبق، وتعصف به الخرافات والأساطير، مما يضفي عليه هالة الزعامة الخارقة، فمن ثم ألفى الطريق ممهدًا ليعلن دعوته، ويتشح بثوب المهدي المنتظر، وينتحل صفة الإمام المعصوم، انظر: «دولة الإسلام في الأندلس» (٤/١٩١ - ١٩٢).

لقد نشأ محبًّا للعلم، ورحل في طلب الاستزادة إلى المشرق الإسلامي سنة ٥٠٠هـ، فحج، وشرع في طلب العلم، ودامت رحلته خمسة عشر عامًا، كان لها أثر كبير في تشكيل شخصيته، والتأثير في آرائه.

غادر ابن تومرت وطنه بالسوس في طلب العلم، وعبر البحر إلى الأندلس، ودرس في قرطبة حينًا، ثم جاز من ثغر ألمرية إلى المشرق، ومر في طريقه على المهدية، وأخذ بها على الإمام المازَري، ثم قصد إلى الإسكندرية، ودرس بها على الإمام أبي بكر الطُّرْطُوشِيِّ، وأدى بعد ذلك فريضة الحج، ثم سافر إلى العراق، وأمضى بها أكثر من عشر سنوات، وفي بغداد درس الفقه والأصول على أبي بكر الشاشي الملقب بفخر الإسلام، وإلكيا الهراسي الطبري، ودرس الحديث على المبارك بن عبدالجبار وغيره[1]، وبالتأمل في تاريخ وفاة المبارك بن عبدالجبار وهو ٥٠٠هـ، كما في «شذرات الذهب» (٤١٢/٣)، نشك في لقيا ابن تومرت إياه، لأن الأخير لم يغادر المغرب إلا سنة ٥٠١هـ، ومن هنا اتهم بعض الباحثين أتباع ابن تومرت أنهم جمعوا لائحة من الأسماء البارزة، وجعلوا منها أشياخًا له لصبغه بصبغة علمية أكبر، وانظر «الأثر السياسي للعلماء في دولة المرابطين» هـ ص(٢٠٧).

ويشبه ذلك ما قيل من أنه لقي أبا حامد الغزالي، ودرس عليه في بغداد، ورُدَّ هذا القول باستحالة ذلك ماديًّا، قال ابن الأثير: «والصحيح أن ابن تومرت لم يجتمع به» وشكك فيها ابن خلدون وابن الخطيب[2].

وفي بغداد تبحر في علم الكلام، وعقائد المعتزلة، والأشاعرة، وذكر المراكشي في وصفه لابن تومرت أنه «كان أوحد عصره في علم خط الرمل» «المعجب» ص(٢٦٥)، وهي صناعة يزعم أصحابها أنهم يستبطنون فيها أخبار الغيب، ومستقبل الأحداث[3].

(١) «دولة الإسلام في الأندلس» (١٦٠/٤ - ١٦١).
(٢) انظر تفصيل ذلك في «السابق» (١٦١/٤ - ١٦٣).
(٣) «أثر العلماء في سياسة دولة المرابطين» ص(٢٠٩).

ومكنته رحلاته المشرقية من تحصيل علوم النقل والعقل، ومكنته رحلاته المغربية مع المشرقية من الوقوف على أحوال العالم الإسلامي، واتساع خبرته بطبائع الجماعات المختلفة، واستيعاب أسباب تدهور الإمارات المغربية، الأمر الذي غرس في نفسه الطموح لنشر دعوته، وبناء دولته.

وتميز ابن تومرت بالقدرة التنظيمية، والمهارة التخطيطية، إلى جانب تميزه بالدهاء، وحسن استغلاله الفرص، وخبرته العسكرية، كما كان له منهجية تربوية، وأهداف محددة، سعى لإنجازها بكل الوسائل، ولو كانت دنيئة.

الثَّانِي: الصُّورَةُ الَّتِي قَدَّمَهَا لِنَفْسِهِ:

شكلت عاملَ جذبٍ للمحيطين به، فقد لَفَتَ أنظار الناس إليه بإظهار الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وشجاعته في نقد الولاة، بل مبالغته في ذلك أحيانًا، وكذا اشتهاره بالزهد، والتقشف، والقدرة على المناظرة، والمحاججة.

الثَّالِثُ: التَّدَرُّجُ، وَالْمَرْحَلِيَّةُ فِي إِظْهَارِ دَعْوَتِهِ:

مما وَفَّرَ لها غِطَاءً من «التقية» المرحلية حماها من وأدها في مهدها، واستئصالها، وظل مُلْتَزِمًا هذا المبدأَ إلى أن «استنسر»، بعد ما تكونت قاعدة شعبية عريضة من أتباعه، فتعذر، بل تعسَّر على المرابطين إخماد حركته.

الرَّابِعُ: قُوَّةُ جِهَازِهِ الْإِعْلَامِيِّ، وَكَفَاءَةُ آلَتِهِ الدِّعَائِيَّةِ:

وقد كان الإعلام التومرتي جارفًا إلى حدٍّ أن الدولة المرابطية لم تَقْوَ على قمعه، والتصدي لأكاذيبه بنفس الكفاءة، وقد ظهرت قدراته التَّعْبَوِيَّةُ في تحريض أتباعه، ودفعهم إلى المعارك؛ للقتال بضراوة ضد المرابطين، الذين وصمهم بالألقاب المنفرة؛ كالمجسمين، والزراجنة(١)، ....

(١) الزراجنة: نسبة إلى «الزرجان»؛ وهو طائر أسود البطن أبيض الريش؛ لأن المرابطين في زعمه بيض الثياب سود القلوب، كما في «دولة الإسلام في الأندلس» (٤/١٨٥).

والحشم[١]، وأنهم شر من إبليس، وأن حربهم أوجب من حرب النصارى، والمجوس، في الوقت الذي لقب أتباعه بالموحدين، تعريضًا بالمرابطين.

وقد كان من أعظم مزايا ابن تومرت العلمية؛ مقدرته البارزة في إتقان اللغتين العربية والبربرية، وكان وعظه ومخاطبته لقومه بالبربرية، تنفذ إلى سويداء قلوبهم، وتزيدهم فتنة به وتعلقًا، وتوطد مكانته الدينية والسياسية، وكانت كتب ابن تومرت ـ بعد القرآن والسنة ـ هي أشد الكتب الدينية احترامًا بين أقوام الموحدين على اختلاف قبائلهم، لأنها ـ نظرًا لكتابتها البربرية ـ كانت ذائعة، وكانت في متناول كل إنسان[٢].

الخامس: دعواه الانتساب إلى أهل بيت النبي ﷺ، ودعواه المهدية[٣]، والعصمة

مما سهَّل انقياد أتباعه له، وتسليمهم لتعاليمه، والتفاني في نصرته.

السَّادِسُ: طَبِيعَةُ أَتْبَاعِهِ:

فقد ساعدت سذاجة المجتمع المغربي، وجهله في تغلغل أفكاره في أوساطه، وقد كان يهتم بتجنيد الأغمار، والشُّذَّج، والأحداث، الذين شكلوا قاعدته الشعبية التي توكأ عليها[٤]؛ لأنهم أسلس قيادًا، وأكثر تقبلًا لِحِيَلِهِ، ودَجَلِهِ[٥]، وكان يستبعد ذوي

(١) لاتخاذهم اللثام كما يتخذه الحشم، وهم خاصة الرجل من عبيد أو أهل أو جيرة، وانظر في سبب تسميتهم بالملثمين: «فقه التمكين دولة المرابطين» ص(٨-٩)، «دولة الإسلام في الأندلس» (٤/٢١١-٢١٢).

(٢) «دولة الإسلام في الأندلس» (٤/٢١٧).

(٣) وقد رسخ دعاة ابن تومرت في أذهان القبائل أن الفساد والظلم والجور لا تُزال إلا بالمهدي؛ لذا فالإيمان به واجب، ومن يشك فيه فهو كافر، وقال ابن تومرت في شأن المهدي: «فالعلم به واجب، والسمع والطاعة له واجب، والتسليم له واجب، والرضا بحكمه واجب، ورفع الأمور إليه بالكلية لازم»، وقال: «أمر المهدي حتم، ومن خالفه يُقتل» اهـ. انظر: «دولة الإسلام في الأندلس» (٤/٢٠٨ ـ ٢٠٩)، و«الكامل» لابن الأثير (٦/٥٦٢).

(٤) وقد وصفهم المراكشي بأنهم «قوم صيام عن جميع العلوم» كما في «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» ص(٢٧٠)، ووصفهم ابن أبي زرع بأنهم «قوم جهلة، لا يعرفون شيئًا من أمر الدين، ولا من أمر الدنيا» كما في «روض القرطاس» ص(١٧٧)، وانظر: «مجموع الفتاوى» (١١/٤٧٧).

(٥) انظر: «تلبيس إبليس» ص(٥٣٩ ـ ٥٤٢).

الفِطَنِ، والبصائر، ويفتك بمن يظن في ولائه له شائبة شك، عن طريق المذابح الوحشية التي أسماها «التمييز»، كما تَقَدَّمَ بيانه.

السَّابِعُ: مَتَانَةُ جَبْهَتِهِ الدَّاخِلِيَّةِ:

فقد أثمرت الروحُ المعنوية العالية، والتلاحم الشديد بينه كقيادة، وبين أتباعه، وقوة ثقتهم في منهجهم، وتوظيفه للعصبية القبلية،جبهة داخلية متماسكة، دعَّمها عن طريق الحيل، والدجل، والأكاذيب التي راجت على أتباعه الأغمار.

الثَّامِنُ: دَوْرُ عَبْدِالْمُؤْمِنِ، وَشَخْصِيَّتُهُ:

فقد كان ذا مَواهِبَ سياسيَّةٍ فذةٍ، وكفاءات متميزة، أهَّلته لكي يكون الساعد الأيمن لابن تومرت في حياته، ثم خليفة له بعد وفاته؛ حيث باشر بناء الدولة، وخاض حروبًا ضارية انتهت بسقوط دولة المرابطين، وتوحيد الشمال الأفريقي.

التَّاسِعُ: الضَّعْفُ الَّذِي بَدَأَ يَدِبُّ فِي دَوْلَةِ الْمُرَابِطِينَ:

والذي نشأ عن الانغماس في الترف، والشهوات، والانحراف عن الشورى، والتعصب الأعمى لمذهب الإمام مالك ـ رحمه الله ـ، وفقد القيادات المتميزة: في الحروب، أو بالموت، والأزمات الاقتصادية العنيفة، وأخيرًا: صدامها المسلح مع جيوش الموحدين الذي استنفد طاقتها، وأنهك قواها، وانتهى بالقضاء عليها.

* * *

أَهَمُّ المَآخِذِ عَلَى حَرَكَةِ ابْنِ تُومَرْتَ

الأَوَّلُ: ادِّعَاؤُهُ المَهْدِيَّةَ:

مع أنه أبعد الناس عن صفة المهدي، فلم يثبت انتسابه إلى أهل البيت، ولم تنعم الأمة في عهده بالأمن، والرخاء، بل شقيت بسفكه الدماء، وترويع المسلمين، ولم ينزل المسيح ـ عليه السلام ـ في عهده، والمهدي الحقيقي يقيم خلافة على منهاج النبوة، أما ابن تومرت فقد انحرفت عقيدته عن منهاج النبوة، وعقيدة السلف الصالح، التي قال الله ـ تَعَالَى ـ فيها: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾... الآية، والمهدي الحقيقي يملك سبع سنين، وابن تومرت لم يملك لحظة واحدة[1].

الثَّانِي: ادِّعَاؤُهُ العِصْمَةَ لِنَفْسِهِ:

وهذا افتراء على الله ـ تَعَالَى ـ، وعلى دينه، وشذوذ عن سبيل المؤمنين، وموافقة للرافضة ـ قبحهم الله ـ، وأين العصمة المدعاة، وقد أراق دماء الآلاف من المسلمين، وقتل من يشك في عصمته؟!، ومن قال إن المهدي الحقيقي يدعي العصمة لنفسه؟! ﴿سُبْحَـٰنَكَ هَـٰذَا بُهْتَـٰنٌ عَظِيمٌ﴾.

---

(١) ومن الأدلة على فساد عقيدته وزيف مهديته أنه ما كاد يمضي على وفاته قرن من الزمان حتى أصدر أحد خلفائه الملقب بالمأمون مرسومًا يقضي بإزالة اسم المهدي من الخطبة ومن السكة، ومحو اسمه من المخاطبات، وقال في كتابه الرسمي: «إن وصف ابن تومرت بالمهدي وبالإمام المعصوم إنما هو نفاق وبدعة وأمر باطل، وإنه يجب نبذه والقضاء عليه»، وقال: «وتلك ـ أي دعوى المهدية ـ بدعة قد أزلناها، والله يعيننا على القلادة التي تقلدناها، وقد أزلنا لفظ العصمة عمن لا تثبت له عصمة، فلذلك أزلنا عنه رسمه.. وإذا كانت العصمة لم تثبت عند العلماء للصحابة، فما الظن بمن لم يدر بأي يد يأخذ كتابه؟ أفٍّ لهم قد ضلوا وأضلوا، ولذلك ولوا وذلوا، ما تكون لهم الحجة على تلك المحجة، اللهم اشهد، اللهم اشهد أنَّا قد تبرأنا منهم تبرأ أهل الجنة من أهل النار، إنهم في المعتقد من الكفار».
وفي رواية أنه صعد المنبر في مراكش، وخطب الناس، ولعن المهدي، وقال: «يا أيها الناس لا تدعوه بالمعصوم، وادعوه بالغوي المذموم، إنه لا مهدي إلا عيسى، وإنا قد نبذنا أمره النحيس به». انتهى. ملخصًا من «دولة الإسلام في الأندلس» (٥/٣٧٠ ـ ٣٧١).

الثَّالِثُ: تَبَنِّيهِ الْقَاعِدَةَ الْمِكْيافِيلِيَّةَ «الْغَايَةُ تُسَوِّغُ الْوَسِيلَةَ»:

ففي سبيل التمكين لدعوته، وإقناع الناس بها، استحل الغدر، والكذب(١)، والدجل، والخداع، مع أن صاحب دعوة الحق يتنزه عن هذه الأساليب الرخيصة؛ إذ الحق غني عن أن يحتاج إلى هذه الأساليب الدنيئة في التمكين له، فغايته شريفة، ووسيلته إليها نظيفة.

الرَّابِعُ: أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ أَدْخَلَ التَّأْوِيلَ الْكَلَامِيَّ عَلَى أَهْلِ الْمَغْرِبِ الْإِسْلَامِيِّ:

بل الشمال الأفريقي، وفرضه عليهم بالقوة، بعد أن كانوا في عافية من شره، باتباعهم منهج السلف الصالح، أهل السنة والجماعة، كما أنه استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، حين تبنى خليطًا من أفكار الأشاعرة، والمعتزلة، والخوارج، والرافضة.

الْخَامِسُ: تَسَبُّبُهُ فِي الْقَضَاءِ عَلَى دَوْلَةِ الْمُرَابِطِينَ السُّنِّية السلفية:

وكانت بداية هذه الجناية مبالغته في الإنكار على ابن تاشفين الذي اتقى الله فيه، وتورع عن قتله، أو حبسه، فاستغل ابن تومرت تسامحه معه، وتوصل به إلى شق عصا الطاعة، وتفريق الجماعة، وتمزيق دولة المرابطين، والقضاء عليها، مستحلًا ذلك كله بسبب تكفيره المرابطين، بدل أن يبذل النصح المخلص بالوسائل الشرعية لذلك الملك الذي قال فيه ابن خلكان ـ رحمه الله ـ: «وكان ملكًا عظيمًا، حليمًا، ورعًا، عادلًا، متواضعًا»(٢)، ووصفه عبدالواحد المراكشي بأنه: «يُعَد من الزهاد والمتبتلين أقرب منه إلى أن يُعَد من الملوك والمتغلبين»(٣).

لقد أسهمت حركة ابن تومرت على المدى البعيد في ضياع الأندلس، وسقوطها

---

(١) ومن كذبه أنه ادَّعى زورًا أن مكان ظهور المهدي هو المغرب الأقصى!

(٢) «وفيات الأعيان» (٥/٤٩).

(٣) «المعجب» ص(٢٥٢).

بيد النصارى[١]، ومع أن عبدالمؤمن أقام مملكة شاسعة امتدت إلى الأندلس، إلا أن الواقع أن تضحيات المرابطين في الأندلس كانت من أكبر الأسباب التي مكنت الموحدين المصامدة من التغلب، والنصر[٢].

● يقول الدكتور علي محمد الصَّلَّابي ـ حفظه الله ـ:

(إن حركة ابن تومرت حركة تدميرية عملت على هدم أركان دولة المرابطين، تلك الدولة التي قامت على تعاليم الإسلام النقية، واتخذت من جهاد النصارى في الأندلس هدفًا أسمى لوجودها، فما أفزعهم من مقر حكمهم في مَرَّاكُش إلى الأندلس سوى الغيرة على الإسلام، عندما أخذت معاقل المسلمين تتهاوى تحت مطارق «ألفونسو السادس»، وبذلك أَخَّرُوا سقوط الأندلس بيد النصارى عدة قرون.

ولكن ما إن بدأت ثورة المهدي ابن تومرت حتى أخذت تشغلهم بعض الشيء عن واجبهم المقدس في الأندلس، فأخذ أمير المسلمين يستصرخ قواده العظام من الأندلس، أمثال تاشفين بن علي لمقارعة الموحدين، وأدى ذلك إلى ازدياد ضغط النصارى على المسلمين في الأندلس، وبدءوا يلتهمون المدن الأندلسية الواحدة بعد الأخرى. في هذا الوقت استطاع ابن تومرت، بواسطة المؤمنين بمهديته، أن يطيحوا بدولة المرابطين، فأثلج ذلك قلوب النصارى الذين أدركوا أن الخلاص من الوجود الإسلامي في الأندلس أضحى وشيكًا[٣].

* * *

(١) ولا شك أن في هذا عبرة تاريخية تؤكد أن فساد العقيدة يترتب عليه اضمحلال أحوال الأمة، لأن العقيدة الصحيحة هي خط الدفاع الأول الذي ينهار بانهياره ما بعده، ولا يمكن أن تعود الأمة إلى عزها ومجدها إلا بتصحيح العقيدة كما قال ﷺ: «ثم تكون خلافة على منهاج النبوة» الحديث في «مجمع الزوائد» (٥/١٨٩).

(٢) «أطلس تاريخ الإسلام» ص (١٨١).

(٣) «دولة الموحدين» ص (٩٤)، وانظر: «دولة الإسلام في الأندلس» (٤/٢٥٤) وما بعدها.

فصـــل

موقف غريب لابن خلدون

● **ومن الغريب الذي يلفت النظر موقف العلامة المؤرخ ابن خلدون من ابن تومرت ودعوته، فهو يدافع عن المهدي ابن تومرت، وعن صحة دعوته، وصدق إمامته، في نبذة طويلة يقول فيها:**

«ويلحق بهذه المقالات الفاسدة، والمذاهب الفائلة، ما يتناوله ضعفة الرأي من فقهاء المغرب من القدح في الإمام المهدي صاحب دولة الموحدين، ونسبته إلى الشعوذة، والتلبيس فيما أتاه من القيام بالتوحيد الحق، والنعي على أهل البغي قبله، وتكذيبهم لجميع مدعياته في ذلك، حتى فيما يزعم الموحدون أتباعه من انتسابه في أهل البيت، وإنما حمل الفقهاء على تكذيبه، ما كمن في نفوسهم من حسده على شأنه، فإنهم لما رأوا من أنفسهم مناهضته في العلم والفتيا وفي الدين بزعمهم، ثم امتاز عنهم بأنه متبوع الرأي، مسموع القول، موطأ العقب، نفسوا عليه ذلك، وغضوا منه بالقدح في مذاهبه، والتكذيب لمدعياته، وأيضًا فكانوا يؤنسون من ملوك لمتونة أعدائه تجلة وكرامة لم تكن لهم من غيرهم، لما كانوا عليه من السذاجة، وانتحال الديانة، فكان لحملة العلم بدولتهم مكان من الوجاهة، والانتصاب للشورى كل في بلده، وعلى قدره في قومه، فأصبحوا بذلك شيعة لهم، وحربًا لعدوهم، ونقموا على المهدي، ما جاء به من خلافهم، والتثريب عليهم، والمناصبة لهم، تشيعًا للمتونة، وتعصبًا لدولتهم». ثم يقول دفاعًا عن المهدي:

«وما ظنك برجل نقم على أهل الدولة ما نقم من أحوالهم، وخالف اجتهاده فقهاءهم، فنادى في قومه، ودعا إلى جهادهم بنفسه، فاقتلع الدولة من أصولها، وجعل عاليها سافلها، أعظم ما كانت قوة، وأشد شوكة، وأعز أنصارًا وحامية، وتساقطت في

ذلك من أتباعه نفوس لا يحصيها إلا خالقها، قد بايعوه على الموت، ووقوه بأنفسهم من الهلكة، فتقربوا إلى الله تعالى بإتلاف مُهَجِهِم في إظهار تلك الدعوة، والتعصب لتلك الكلمة حتى علت على الكلم، ودالت بالعدوتين من الدول، وهو بحالة من التقشف والحصر، والصبر على المكاره، والتقلل من الدنيا، حتى قبضه الله، وليس على شيء من الحظ والمتاع في دنياه.. فليت شعري، ما الذي قصد بذلك إن لم يكن وجه الله، وهو لم يحصل له حظ من الدنيا في عاجله؟ ومع هذا فلو كان قصده غير صالح لما تم أمره، وانفسحت دعوته، سُنَّةَ الله التي قد خلت في عباده»(١).

● **وقد علق الأستاذ محمد عبدالله عنان على موقف ابن خلدون قائلًا:**

«وابن خلدون يقدم إلينا هذا الدفاع عن المهدي في معرض كلامه عن أخطاء المؤرخين وأوهامهم ودعاويهم المغرضة، وهو يقدم إلينا منها نماذج، يصاحبه التوفيق في بعضها ويخطئه في البعض الآخر، ونحن نرى أن التوفيق قد أخطأه في هذا الدفاع عن المهدي ابن تومرت، وعن صدق دعوته، وقد استعرضنا فيما تقدم من حديثنا عن حياة المهدي، ما يحملنا على الشك، أولًا: في صدق انتسابه إلى آل البيت، وثانيًا: في انتحاله دعوة المهدية، وهي دعوة نشك أيضًا في صدقها من الناحية الدينية والتاريخية، ونحن نعتقد أن مفكرًا عظيمًا، ومؤرخًا فيلسوفًا، وضعي العقلية، كابن خلدون، لا يمكن أن يؤمن بصدق هذه الدعوة، وإنما حمل ابنَ خلدون على الدفاع عن المهدي ودعوته، بواعثُ خاصة، أولها: أن بني خلدون ـ أسرة المؤرخ ـ كانت مذ غادرت الأندلس في أوائل القرن السابع الهجري ـ قد نزلت بتونس، وعاشت في رعاية بني حفص ملوك الدولة الحفصية الموحدية التي أسسها الأمير أبو يحيى زكريا بن عبدالواحد بن أبي حفص عمر الموحدي، وتولى أجداد المؤرخ في ظلهم مناصب النفوذ والثقة، وبدأ هو حياته العامة في ظلهم، وعاش في كنفهم ردحًا من الزمن، وأهدى

(١) «المقدمة» لابن خلدون ص(٢٢)ط. بولاق، وراجع موقف ابن خلدون من أحاديث المهدي ص(١٥٣).

أول نسخة من مقدمته وتاريخه للسلطان أبي العباس الحفصي (٧٨٤هـ)، فلم يكن من المعقول أن يجاهر المؤرخ في مقدمته، بالطعن في إمامة المهدي ودعوته، وهي التي كانت أساسًا لقيام الدولة الموحدية، وثانيًا: أنه ليس من المنطق السليم، أن يكون نجاح دعوة المهدي ابن تومرت، وما ترتب عليه من قيام الدولة الموحدية، دليلًا على صدق هذه الدعوة، لأن النجاح السياسي والعسكري لداعية أو متغلب لم يكن قط في ذاته دليلًا على صدق إمامة أو دعوة دينية، وثالثًا: أن إنكار صدق دعوة المهدي ابن تومرت لم يكن قاصرًا على الفقهاء المرابطين، الذين يعلل ابن خلدون طعنهم في هذه الدعوة بما كان يجيش في صدورهم من حقد على رجل يتفوق عليهم بعلمه، ويغض بهذا التفوق من مكانتهم ونفوذهم القديم لدى الدولة اللمتونية، بل شمل هذا الإنكار كثيرًا من المؤرخين[1].

ولا يكتفي ابن خلدون بالدفاع عن صحة دعوة المهدي، بل يقرن ذلك بالدفاع عن نسبه في آل البيت، وهو هنا في تدليله أضعف منطقًا، حينما يقول: «إنه لا دليل يعضد إنكار هذه النسبة، والناس مصدقون في أنسابهم»، وهو إذ يشعر هنا بضعف منطقه، يقول لنا: إن ظهور المهدي لم يكن يتوقف على نسبته، وإنما قام أمره بعصبيته القبلية في هرغة ومصمودة، وأن هذا النسب الفاطمي، كان أمرًا خفيًّا عنده وعند عشيرته يتناقلونه بينهم[2].

ويذكرنا موقف ابن خلدون في الدفاع عن دعوة المهدي ابن تومرت ونسبه، بموقفه من نسب بني عبيد الخلفاء الفاطميين، فهو يتصدى لتأييده وإثباته، ويعتبر الطعن فيه من «الأخبار الواهية» التي عُني بتفنيدها في مقدمته، وأن هذا الطعن يرجع بالأخص إلى الأحاديث التي لُفقت لبني العباس خصوم الفاطميين تزلفًا إليهم، ويعتمد هنا على نفس النظرية التي لجأ إليها في الدفاع عن دعوة المهدي، وهو أن ظهور الفاطميين،

(١) بل تبرأ منه «المأمون» أحد خلفائه، كما تقدم ص(٤٢٠) هامش رقم (١).
(٢) «السابق» ص(٢٣).

وقيام الدولة الفاطمية المترامية الأطراف، واتصال أمرها نحوًا من مائتين وسبعين عامًا، كل ذلك لا يمكن أن يتم لِدَعِيٍّ[١].

وهي طريقة معكوسة في التدليل، ونظرية واضحة الضعف والسقم، إذ كان على ابن خلدون أن يقدم لنا الأدلة المباشرة، على صحة نسب الفاطميين لآل البيت، كما قدم خصومهم الأدلة على بطلان هذه النسبة.

وقد تناول كاتب مشرقي من كتاب النصف الأول من القرن الثامن الهجري هو الحسن بن عبدالله العباسي في كتابه «آثار الأول وترتيب الدول» مَثَلَ ابن تومرت وقصة ظهوره، في معرض الكلام عن الزهاد، والمغالطين باسم الزهد، فقال:

«وفيهم أصناف من أهل الغلط في طريق الزهد، والمغالطة لأغراض أُخَرَ، منهم صنف يغلب عليهم محبة الرياسة والإمرة..»[٢].

ويعتبر هذا الكاتب مَثَلَ ابن تومرت، هو أقرب ما جرى في هذا المعنى؛ معنى الداعية المتزهد المخادع الذي يبطن انتزاع الرياسة، وأنه تذرع بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر[٣].

- والحاصل أن حركة ابن تومرت لا يمكن وصفها بالحركة الإصلاحية؛ لأنها كانت حركة غلب عليها الإفساد والتدمير، وكانت أبعد ما تكون عن معالم المنهاج النبوي، والإصلاح السلفي التجديدي، وبخاصة في مجال العقيدة.

(١٢) تِمِرْتَاشُ بن النوين جوبان (قُتِلَ سنة ٧٢٨هـ):

قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ: (كان شجاعًا فاتكًا، إلا أنه خَفَّ عقله، فزعم

---

(١) «السابق» ص(١٧ ـ ١٨).

(٢) «آثار الأول وترتيب الدول» المنشور على هامش «تاريخ الخلفاء» السيوطي ص(٦١ ـ ٦٢) ط.القاهرة ١٣٠٥هـ.

(٣) «دولة الإسلام في الأندلس» (٤/١٩٤ ـ ١٩٦).

أنه المهدي الذي يخرج في آخر الزمان، فبلغ ذلك أباه، فركب إليه، ورده عن هذا المعتقد)[١].

(١٣) أحمد بن عبدالله بن هاشم، أبو العباس المعروف بالملثم (٦٥٨-٧٤٠هـ)

(نشأ أبوه ببلاد الترك، وقدم القاهرة، فولد له الملثم في رمضان سنة ٦٥٨هـ، واشتغل في الفقه على مذهب الشافعي، وحفظ التنبيه، ولازم الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد في الفقه وسماع الحديث عشرين سنة، وسمع عدة من الكتب الكبار على ابن دقيق العيد، ثم سلك طريق العبادة، فحصل له انحراف مزاج، فادعى في سنة ٦٨٩هـ دعاوى عريضة؛ من رؤية الله ـ تَعَالَى ـ في المنام مرارًا، وأنه أسري به إلى السماوات السبع، ثم إلى سدرة المنتهى، ثم إلى العرش، ومعه جبريل، وجمع من الملائكة، وأن الله كلَّمه، وأخبره بأنه المهدي، وأن البشائر تواردت عليه من الملائكة، وأنه رأى النبي ﷺ، فأعلمه بأنه من ولده، وأنه المهدي، وأمره أن ينذر الناس، ويدعوهم إلى الله، فاشتهر أمره؛ فأُخذ، وحُبس، وذُكر أنه سُقي السم مرارًا، فلم ينجع فيه، ودخل عليه رجل فأراد خنقه، فذكر عن نفسه أن الرجل جفت يده؛ أي: شَلَّت. وجمع هذا الرجل كتابًا كبيرًا بث فيه الأحوال التي اتفقت له، وفيه دعاوى عريضة غالبها منامات، ويحلف على كل منها، وذكر في بعض كلامه أن المهدي يخرج في سنة ٧٣٤هـ، أو في سنة ٧٤٤هـ، وذكر عدة منامات أنه هو المهدي، ثم ذكر في مواضع أن المعنيَّ بكونه المهديَّ أنه يهدي الناس إلى الحق، وليس هو المهدي الموعود به في آخر الزمان.

وَذَكَرَ أنهم حبسوه عند المجانين، ثم أرسلوا إليه السم فوضع في شرابٍ، وسقوه، فما أثر فيه، وأنهم سقوا نصرانيًا من الأسرى، فمات من ساعته، وأنه أُطْلِقَ، وأظهر التوبة

(١) «الدرر الكامنة» (٥٣/٢).

من دعواه أنه المهدي، وكان مما شُهِدَ عليه أنه زعم أنه رسول الله، فتنصَّل من ذلك، وقال: «إنما قلت: إني رسول أرسلني رسول الله إليكم لأنذركم»، ومات هذا الرجل في سنة ٧٤٠هـ، وقد جاوز الثمانين، والله أعلم بحاله)[(١)].

ولا يخفاك أن ما ادعاه من خَرْقِ عادة، وأحوال غريبة، إنما حكاها هو عن نفسه، وبالتالي فهو إما كاذب، وإما أنها أحوال شيطانية، وإلا فالدجال الأعور سيأتي بأضعافها، أو أنها صدرت عن «اضطراب نفسي»؛ كما يُفهم مما سبق.

(١٤) محمد بن يوسف الحسيني الجونبوري (ت٩١٠):

ولد سنة سبع وأربعين وثمان مئة بمدينة جونبور بشرق الهند، وطلب العلم من بعض المشايخ، ثم اشتغل بالعبادة والرياضة، حتى ترك الأهل والأولاد، وخرج يتجول في الفيافي، والصحاري، والجبال، ورجع بدعوى المهدية، فأخذ يبشر الناس بمهديته من بلد إلى بلد، وتبعه أناس كثيرون مُغْتَرِّينَ بزهده وتقشفه؛ كشأنهم وراء كل ناعق، وفي سنة ٩٠١هـ سافر للحج، وادعى في مكة المكرمة أنه مهدي، ومن تبعه فهو مؤمن، ثم رجع إلى الهند، وأخذ يتجول من بلد إلى بلد يدعو الناس إلى مهديته، وتوجه إلى خراسان، ولعله أراد أن يطبق عليه حديث الرايات السود من خراسان، ولكن حالت بعض الموانع دونه، فمات، وهو ينتظر الدخول في خراسان، وكانت وفاته سنة ٩١٠هـ[(٢)].

واختلف الناس في شأنه، وقال اللاهوري في «خزينة الأصفياء»: إنه قال: «أنا مهدي» في غلبة الحال، ولكنه تاب عن ذلك القول في حالة الصحو، والإفاقة كغيره من الصوفية. وأما أصحابه الجهلة، فإنهم لم يعتبروا إقالته، فأصروا على أنه مهدي موعود، وضلوا عن الطريق، وأضلوا كثيرًا من الناس، واخترعوا مذهبًا جديدًا، وانتسبوا

---

(١) «السابق» (١/١٩٧-٢٠٠) بتصرف.

(٢) «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر» (٧/٣٢٤-٣٢٦) بتصرف، وانظر: «فرق الهند» ص(٢٣٢).

إلى الفرقة المهدوية.

وقال أبو رجاء محمد الشاهجهانبوري في «الهدية المهدوية»: (إن الجونبوري لم يمنع أصحابه من ذلك؛ (أي من نسبة المهدوية إليه)، وبدَّل اسمَ أبيه بعبد الله، واسمَ أُمه بآمنة، وأشاعهما في الناس، وصنف كتابًا في أصول ذلك المذهب...، ومنها:

«أنه مهدي موعود، وأنه أفضل من أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -، بل إنه أفضل من آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى - على نبينا وعليهم السلام».

- ومنها: أنه كان مساويًا لسيدنا محمد ﷺ في المنزلة، وإن كان تابعًا له في الدين.
- ومنها: أنه ما خالف من الكتاب والسنة قولَهُ وفعلَهُ، فهو غير صحيح.
- ومنها: أن الجونبوري، وسيدنا محمدًا ﷺ كلاهما مسلمان كاملان، وسائر الأنبياء ناقصوا الإسلام.
- ومنها: أن الجونبوري شريك في بعض الصفات الإلهية بعد فوزه بالرسالة، والنبوة [١].

وقد عاثت هذه الفرقة فسادًا في ذلك العصر، فزعموا أن شيخهم هو إمام ذلك العصر، وأن من لم يدخل في طاعته فقد مات ميتةً جاهلية، وقتلوا كثيرًا من مخالفيهم، واستباحوا اغتيالهم، ولقد ألف علي المتقي [٢] صاحب «كنز العمال» رسالتين للرد عليهم، وهما «الرد على من حكم وقضى أن المهدي قد جاء ومضى»، قال فيه:

«ومن قبائحهم أنهم يعتقدون أن من أنكر بهذا السيد الماضي الذي ادعى المهدوية فهو كافر، وبهذا الاعتقاد يُكَفِّرُونَ المسلمين، ويَكْفُرُونَ بِتَكْفِيرِهِمْ، وقال في كتابه الآخر «البرهان في علامات مهدي آخر الزمان»:

«كفى دليلًا على بطلان اعتقاد هذه الطائفة قتلهم العلماء؛ فإن خَصْلَتَهُمْ هذه تدل

---

(١) «المختار المصون من أعلام القرون» (٢/٨٧٦-٨٧٧) بتصرف.

(٢) انظر: «فرق الهند المنتسبة للإسلام» ص(٢٩١).

على عدم الدليل على اعتقادهم، وعجزهم عن إثبات معتقدهم»[١].

وقال البرزنجي: (وقد سمعت كثيرًا ـ من القادمين من بلاد الهند إلى الحرمين من العلماء والصلحاء ـ أن أولئك القوم إلى الآن على ذلك الاعتقاد الخبيث، وأنهم يُعْرَفُونَ بالمهدوية، وربما سُمُّوا بالقتالية؛ لأن كل من قال لهم: «إن اعتقادكم باطل»؛ قتلوه، حتى إن الرجل الواحد منهم يكون بين الجمع الكثير من المسلمين، فإذا قيل له: «إن اعتقادك باطل»، قتل القائل، ولا يبالي: أَيُقْتَلُ أو يَسْلَمُ؟)[٢].

(١٥) محمد بن عبدالله الكردي

قال البرزنجي:(وظهر ـ قبل تأليفي لهذا الكتاب بقليل ـ رجل بجبال عفرا، والعمارية، من الأكراد، يسمى «عبدالله»، ويدَّعي أنه شريف حسيني، وله ولد صغير ابن اثنتي عشرة سنة، أو أقل، أو أكثر، قد سمَّاه محمدًا، ولقَّبه: «المهدي الموعود»، وتبعه جماعة كثيرة من القبائل، واستولى على بعض القلاع، وركب إليهم والي المَوْصِل، ووقع بينهم قتال، وسفك دماء، وقد انهزم المدَّعي، وأُخِذ هو وابنه إلى إستانبول، ثم إن السلطان عفا عنهما، ومنعهما من الرجوع إلى بلادهما، وماتا جميعًا)[٣].

(١٦) الإمام المجاهد، والبطل المجالد، والعَلَّامَة الزاهد العابد عبدالعزيز ابن محمد بن سعود، الملقب بمهديِّ زمانه (ت١٢١٨هـ)

من أمراء آل سعود في دولتهم الأولى، وهو أول من لُقِّب بالإمام بين العائلة السعودية[٤]، وَلِيَ بعد وفاة أبيه (١١٧٩هـ)، واتسع نطاق الدولة في أيامه توسعًا

---

(١) انظر: «البرهان في علامات مهدي آخر الزمان» ص (٦)، وما بعدها، و«فرق الهند» ص(٣١٩)، (٢٣٥).

(٢) «الإشاعة» ص (١٢١).

(٣) «السابق» ص (١٢١-١٢٢).

(٤) انظر: «تاريخ الجزيرة العربية في عصر الشيخ محمد بن عبدالوهاب»، لحسين خلف الشيخ خزعل ص (٣٨٨-٣٩٠).

كبيرًا، وازدادت قوتها، قال الشوكاني في «البدر الطالع» شارحًا أَثَرَ فتوحات عبدالعزيز ابن محمد بن سعود ـ رحمه الله ـ:

(ومن دخل تحت حوزته أقام الصلاة، والزكاة، والصيام، وسائر شعائر الإسلام، ودخل في طاعته من عرب الشام الساكنين ما بين الحجاز، وصَعْدَة غالبهم، إما رغبة وإما رهبة، وصاروا مقيمين لفرائض الدين، بعد أن كانوا لا يعرفون من الإسلام شيئًا، ولا يقومون بشيء من واجباته إلا مجرد التكلم بلفظ الشهادتين، على ما في لفظهم بها من عِوَجٍ، وبالجملة فكانوا جاهلين جهلاء، كما تواترت بذلك الأخبار إلينا، ثم صاروا الآن يصلون الصلوات لأوقاتها، ويأتون بسائر الأركان الإسلامية على أبلغ صفاتها)[١] . اهـ.

● وقال الشيخ عثمان بن بشر النجدي في «عنوان المجد في تاريخ نجد»:

(وكان عبدالعزيز كثير الخوف من الله والذكر، آمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم، ينفذ الحق، ولو في أهل بيته، وعشيرته، لا يتعاظم عظيمًا إذا ظَلَم؛ فيقمعه عن الظلم، وينفذ الحق فيه، ولا يتصاغر حقيرًا فيأخذ له الحق، ولو كان بعيد الوطن، وكان لا يكترث في لباسه، ولا سلاحه؛ بحيث إن بنيه وبني بنيه محلاة سيوفهم بالذهب، والفضة، ولم يكن في سيفه شيء من ذلك إلا قليل، وكان لا يخرج من المسجد بعد صلاة الصبح حتى ترتفع الشمس، ويصلي فيه صلاة الضحى، وكان كثير الرأفة، والرحمة بالرعية، وخصوصًا أهل البلدان؛ بإعطائهم الأموال، وبث الصدقة لفقرائهم، والدعاء لهم، والتفحص عن أحوالهم، وقد ذكر لي بعض من أثق به أنه يكثر الدعاء لهم في ورده، قال: وسمعته يقول: «اللهم أبق فيهم كلمة لا إله إلا الله حتى يستقيموا عليها، ولا يحيدوا عنها».

وكانت الأقطار والرعية في زمنه آمنة مطمئنة في عيشة هنية، والشخص الواحد

---

(١) «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع» (٢/٥).

يسافر بالأموال العظيمة أي وقت شاء، شتاءً وصيفًا، يمنًا وشامًا، شرقًا وغربًا، في نجد، والحجاز، واليمن، وتهامة، وغير ذلك، لا يخشى أحدًا إلَّا الله: لا سارقًا، ولا مكابرًا، وكانت جميع بلدان نجد من العارض، والخرج، والقصيم، والوشم، والجنوب، وغير ذلك من النواحي، في أيام الربيع - يسيبون جميع مواشيهم في البراري من الإبل، والخيل الجياد، والبقر، والأغنام، وغير ذلك، ليس لها راعٍ، ولا مَرَاعٍ، بل إذا عطشت وردت على البلدان، ثم تصدر إلى مفاليها، حتى ينقضي الربيع، أو يحتاجون لها أهلها لسقي زروعهم، ونخيلهم، وربما تلقح، وتلد، ولا يدري أهلها إلا إذا جاءت، وولدها معها، إلا الخيل الجياد؛ فإن لها من يتعاهدها.

وكان - رحمه الله - تَعَالَى - مع رأفته بالرعية، شديدًا على من جنى جنايةً من الأعراب، أو قطع سُبُلًا، أو سَرَقَ شيئًا من مسافر؛ بحيث من فعل شيئًا من ذلك أخذ ماله نكالًا، أو بعض ماله، أو شيئًا منه، على حسب جنايته، وأدَّبه أدبًا بليغًا.

وحُكي أنه أتى حاجٌّ من العجم، ونزل قُرْبَ بَوَادِي سُبَيْع، فسُرق من الحاج غِرارة[1] فيها من الحوائج ما يساوي عشرة قروش، فكتب صاحب الغرارة إلى عبدالعزيز يخبره بذلك، فأرسل إلى رؤساء تلك القبيلة، فلما حضروا عنده قال لهم: «إن لم تخبروني بالغرارة؛ وإلا جعلت في أرجلكم الحديد، وأدخلتكم السجن، وأخذت نكالًا من أموالكم»، فقالوا: «نغرمها بأضعاف ثمنها»، فقال: «كلا حتى أعرف السارق»، فقالوا: «ذرنا نصل إلى أهلنا، ونسأل عنه، ونخبرك»، ولم يكن بد من إخباره، فلما أخبروه به أرسل إلى ماله، وكان سبعين ناقة فباعها، وأدخل ثمنها بيت المال، وجيء بالغرارة لم تتغير، وكان صاحبها قد وصل إلى وطنه فأرسلها عبدالعزيز إلى أمير الزبير، وأمره أن يرسلها إلى صاحبها في ناحية العجم.

وذكر لي شيخنا القاضي عثمان بن منصور أن رجلًا من سُرَّاق الأعراب وجد عنزًا

---

(١) الغِرارة: وعاء من الخيش ونحوه يوضع فيه القمح ونحوه، وهو أكبر من الجُوالق.

ضالة، وهم جياع، وأخبرني أنهم أقاموا يومين، أو ثلاثة مُقْوين[1]، فقال بعضهم لبعض: «لينزل أحدكم على هذه العنز، فيذبحها لنأكلها»، فكل منهم قال لصاحبه: «انزل إليها»، فلم يستطع أحد منهم النزول، خوفًا من العاقبة على الفاعل، فألحوا على رجل منهم، فقال: «والله، لا أنزل إليها، ودعوها؛ فإن عبدالعزيز يرعاها»، فتركوها، وهم في أشد الحاجة إليها، وكانت الحجاج، والقوافل، وجباة الغنائم، والزكاة، والأخماس، وجميع أهل الأسفار يأتون من البصرة، وعمان، وبلاد العجم، والعراق، وغير ذلك إلى الدرعية، ويحجون منها، ويرجعون إلى أوطانهم، لا يخشون أحدًا في جميع البوادي مما احتوت عليه هذه المملكة، لا بحرب، ولا سَرَقٍ، وليس يُؤْخَذُ منهم شيء من القوانين التي تُؤْخَذُ على الحجَّاج، وبَطَلَ جميع الجوائز على الدروب التي للأعراب، أحيوا بها سنن الجاهلية، ويخرج الراكب وحده من اليمن، وتهامة، والحجاز، والبصرة، والبحرين، وعمان، وأنقرة الشام، لا يحمل سلاحًا، بل سلاحه عصاه، لا يخشى كيد عدو، ولا أحد يريده بسوء.

وأخبرني أنه ظهر مع عمال من حلب الشام قاصدين الدرعية، وهم أهل ست نجائب محملات ريال زكوات بوادي أهل الشام، فإذا جنهم الليل وأرادوا النوم، نبذوا أرحلهم ودراهمهم يمينًا وشمالًا، إلا ما يجعلونه وسائد تحت رءوسهم.

وكان بعض العمال إذا جاءوا بالأخماس والزكاة من أقاصي البلاد، يجعلون مزاود الدراهم أطنابًا لخيمتهم، ورُبُطًا لخيلهم بالليل، لا يخشون سارقًا، ولا غيره.

وكان يوصي عماله بتقوى الله، وأَخْذِ الزكاة على الوجه المشروع، وإعطاء الضعفاء، والمساكين، ويزجرهم عن الظلم، وأخذ كرائم الأموال.

وكان ـ رحمه الله ـ تَعَالَى ـ مع ذلك كثيرَ العطاء، والصدقات للرعية من الوفود،

---

(١) أقوى الرجل: افتقر، ونزل بالقَفْر، ونَفِدَ طعامه وفني زاده، وجاع فلم يكن معه شيء، وإن كان في بيته وَسْطَ قومه.

والأمراء، والقضاة، وأهل العلم، وطلبته، ومعلمة القرآن، والمؤذنين، وأئمة المساجد، حتى أئمة مساجد نخيل البلدان، ومؤذنيهم، ويرسل قهوة لأهل القيام في رمضان، وكان الصبيان من أهل الدرعية إذا خرجوا من عند المعلم يصعدون إليه بألواحهم، ويعرضون عليه خطوطهم، فمن تحاسن خطه منهم أعطاه عطاء جزيلًا، وأعطى الباقين دونه.

وكان عطاؤه للضعفاء والمساكين في الغاية، فكان منهم من يُكْتَبُ إليه منه، ومن أمه، وزوجته، وابنه، وابنته، من كل واحد كتابًا وحده، فيوقع لكل كتاب منهم عطاءه، فكان الرجل يأتيه بهذا السبب عشرون ريالًا، وأقل، وأكثر.

وكان إذا مات الرجل من جميع نواحي نجد يأتي أولاده إلى عبدالعزيز يستخلفونه، فيعطيهم عطاءً جزيلًا، وربما كتب لهم راتبًا في الديوان.

وكان كثيرًا ما يفرق على أهل النواحي والبلدان كثيرًا من الصدقات في كل وقت، وكل سنة، يعطي كل أهل بلد، وكل أهل ناحية ألفَ ريال، وأقل، وأكثر، ويسأل عن الضعفاء، والأيتام في الدرعية، وغيرها، ويأمر بإعطائهم، وكثيرًا ما يُفَرِّقُ على بيوت الدرعية، وضعفائها.

وكان كثيرًا ما يكتب لأهل النواحي بالحض على تعلم العلم، وتعليمه، ويجعل لهم راتبًا في الديوان، ومن كان منهم ضعيفًا يأمره بأن يأتي إلى الدرعية، ويقوم بجميع أنوابه.

وأخبرني كاتبه قال: إن عبدالعزيز أخذه يوما صداع، فدعاني، وقال: «اكتب صدقة لأهل النواحي»، فأملى علي: «لأهل منفوحة خمس مئة ريال، وأهل العيينة مثل ذلك، وأهل حريملا سبع مئة ريال، وأهل المحمل ألف ومئة ريال، ولجميع نواحي نجد على هذا المنوال»، قال: قيمتها تسعون ألف ريال، وأتى إليه يومًا خمس وعشرون حِمْلًا من الريالات، فمر عليها وهي مطروحة، فنخسها بسيفه، وقال: «اللهم سَلِّطْني عليها، ولا

تسلطها علي»، ثم بدأ في تفريقها[١]. اهـ.

وفي رجب ١٢١٨هـ قُتِلَ الإمام عبدالعزيز بن محمد بن سعود في مسجد الطريف المعروف في الدرعية، وهو ساجد أثناء صلاة العصر، مضى عليه رجل قيل إنه كرديٌّ من أهل العمارية بلد الأكراد المعروفة عند الموصل، اسمه عثمان، أقبل من وطنه لهذا القصد محتسبًا، حتى وصل الدرعية في صورة درويش، وادَّعى أنه مهاجر، وأظهر التنسك، والطاعة، وتعلم شيئًا من القرآن، فأكرمه عبدالعزيز، وأعطاه، وكساه، وطلب الدرويش منه أن يعلمه أركان الإسلام، وشروط الصلاة، وأركانها، وواجباتها، مما كانوا يعلمونه الغريب المهاجر إليهم؛ وكان قصده غير ذلك، فوثب عليه من الصف الثالث، والناس في السجود، فطعنه في خاصرته أسفل البطن بخنجر معه قد أخفاها، وأَعَدَّها لذلك[٢].

حَكَمَ الإمام عبدالعزيز بن محمد بن سعود ـ رحمه الله ـ تَعَالَى ـ مدة تسعة وثلاثين عامًا (١١٧٩هـ ـ ١٢١٨هـ) (١٧٦٥م ـ ١٨٠٣م)، ومضى أكثر عهد حكمه تحت إشراف مباشر من شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهَّاب نفسه[٣].

(١٧) السيد أحمد بن عرفان البريلوي (ت١٢٤٦هـ)[٤]:

الذي قاد مع الشاه إسماعيل الدِّهْلوي أعظم حركة إسلامية عَرَفَتْهَا القارة الهندية، ولم يَدَّعِ المهدية قط، ولكن بعض أتباعه توهموا ذلك، قال العلامة محمد صديق حسن خان ـ رحمه الله ـ: (... وقد حمل قوم من علماء الهند هذا الحديث على خروج السيد أحمد البريلوي بتكلفات باردة، مع أن السيد كان رجلًا صالحًا، حج،

(١) «المختار المصون من أعلام القرون» (٣/١٩١٥-١٩١٩).

(٢) «السابق» (٣/١٩١٤).

(٣) «محمد بن عبدالوهاب مصلح مظلوم ومفترى عليه» ص (١١١).

(٤) انظر ترجمته في «المختار المصون من أعلام القرون» (٣/١٦٩٢)، و«إذا هبت ريح الإيمان» للشيخ أبي الحسن الندوي ـ رحمه الله ـ تَعَالَى.

وجاهد، وغزا، ولم يَدَّعِ المهدوية قط، ولم تكن تنبغي له هذه الدعوة)[١]. اهـ.

وقال العلامة شمس الحق آبادي ـ رحمه الله ـ: (... ويقرب من هذا ما زعم أكثر العوام وبعض الخواص في حق الغازي الشهيد الإمام الأمجد السيد أحمد البريلوي ـ رَضِيَ اللَّهُ ـ تَعَالَى ـ عَنْهُ ـ أنه المهدي الموعود المُبَشَّر به في الأحاديث، وأنه لم يستشهد في معركة الغزو، بل إنه اختفى عن أعين الناس، وهو حي موجود في هذا العالم إلى الآن، حتى أفرط بعضهم فقال: «إنا لقيناه في مكة المعظمة حول المطاف، ثم غاب بعد ذلك»، ويزعمون أنه سيعود، وسيخرج بعد مرور الزمان، فيملأ الأرض عدلًا وقسطًا، كما مُلِئَتْ جورًا وظلمًا، وهذا غلط وباطل)، إلى أن قال: (وإلى الله المشتكى من صنيع هؤلاء، ونعوذ بالله من هذه العقيدة المنكرة الواهية، والله أعلم)[٢]. اهـ.

* * * * *

(١) «الإذاعة» ص (١٢٣).

(٢) «عون المعبود» (١١/٣٦٧-٣٦٨).